٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٨٠٣

جامعة الأزهر بالقاهرة
كلية اللغة العربية - قسم الدراسات العليا
شعبة الأدب والنقد

٨-٢
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

اتجاه الشعر الإسلامي
في
العصر العباسي الأول

١٠٠٢٧٨٩

إعداد

عبد الله بن إبراهيم الجرجان

السنة الثانية

١٩٧٣م - ١٩٧٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

—١—

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين أما بعد :

فعندما تتحقق أمنية من أماني الانسان يسر لذلك ، وتشيع في نفسه روح الثقة والاطمئنان ، ويصل هذا السرور إلى أعلى درجاته إذا كان اليأس قد دبّ إلى قلبه في يوم من الأيام ، وأعتقد أن تحقيق هذه الأمنية لا سبيل إليه .

منذ بضع سنوات كنت طالبا في كلية اللغة العربية بالرياض ، وكلفت بكتابة بحث يتضمن جمع الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول وتحقيقه ، وواجهت أثناء كتابة البحث تشتت الشعر الإسلامي وعدم العناية به ، ولا زلت أتذكر كلمات الدكتور المشرف على البحث وهو يوصيني بدراسة ما جمعته من هذا الشعر إذا سمحت بذلك الظروف ، وظل إبراز الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي أملاً يراودني حتى شاء الله أن تتحقق هذه الأمنية بمواصلة دراستي العليا في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، وسارعت الى اختيار موضوع لرسالة "الماجستير" وهو " اتجاه الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول " .

ومما لا شك فيه أن العصر العباسي الأول درّة في تاريخ العباسيين ، بل يعدّ مفخرة من مفاخر تاريخ الحضارة الإسلامية كلها ، فقد بلغت الدولة الإسلامية في هذا العصر أوج قوتها واتساعها ، وامتزج العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ، وانتشر التدوين ، ونشطت ترجمة العلوم والفنون ، وحفلت المجالس والأندية بالعلوم والآداب وشجع الخلفاء ورجال الدولة جميع البارزين وأهل المواهب الفذة ، وما خلفه العصر العباسي من ثروة فكرية هائلة أكبر دليل على المستوى الحضارى الذى وصل إليه .

والعصر العباسي جدير بكل عناية ودراسة من قبل الباحثين ، ومن يتأمل ما كتب عن الأدب العباسي ، والشعر العباسي يتبادر إلى ذهنه أن هذا الشعر قد درس دراسة وافية ، واهتم به الباحثون من جميع نواحيه ، ويتغير هذا الظن عند التدقيق والتمحيص ، فما كتب عن الشعر العباسي لا يعدو أن يكون دراسات متشتتة ، وتدرس ناحية معينة دون العناية بالتقصي وابراز المؤثرات في الأدب العباسي ، وأغلب هذه

الدراسات تتناول بإجمال شاعرا بعينه ،أو غرضا من أغراض الشعر ،أو ظاهرة من الظواهر الأدبية ، وينقص هذه الدراسات الشمول والاستقصاء وتوضيح الاتجاهات الشعرية ودوافعها ، ويرى محمد مصطفى هداره [1] أن حظ العصر العباسي من الدراسات الأدبية قليل ، ويؤيده جرونبام بقوله : "إن العصر العباسي كان أقل عصور الشعر العربي حظا من عناية الدارسين" [2] .

وإذا كان الشعر العباسي قد حظي ببعض العناية من الدارسين للأدب العربي فان الشعر الاسلامي في هذا العصر لم يلق شيئا من الاهتمام ، ولم يكتب عنه الباحثون كما كتبوا عن الأغراض الشعرية الأخرى ، وقد يستثنى من ذلك غرض الزهد الذى أشار إليه الأدباء على أنه غرض جديد من الأغراض التي نشأت في العصر العباسي ، وأسباب هذا الإهمال للشعر الاسلامي سيجرى تفصيلها في فصل قادم من هذا البحث .

وقد قسم الباحثون العصر العباسي إلى عصور زمنية أربعة ، ويهمنا الأول منها والذى يبدأ بتولي العباسيين للخلافة سنة ١٣٢ هـ وينتهي سنة ٢٣٢ هـ وذلك كما حدده أكثر الباحثين ، وقد يدخل في موضوعنا شاعر عاش أول حياته في العصر الأموى كما يدخل في موضوعنا شاعر امتدت حياته إلى أول العصر العباسي الثاني .
وتقسيم الأدب إلى عصور مختلفة لا يعني الفصل بين هذه العصور ، ولا يعني عدم الصلة بينها ، فالعصر العباسي بمثابة امتداد طبيعي للعصر الأموي ، واذا أمكننا تصور الفصل بينهما من الناحية السياسية فلا يمكن أن نتصور الفصل بينهما من الناحيتين الاجتماعية والعقلية بحال من الأحوال ، وفي ذلك يقول أحمد أمين :
"يخطيء من يقول أن هناك حدوداً فاصلة بين الدولتين الأموية والعباسية ، وخاصة من الناحية الاجتماعية والعقلية" [3] .

وقد اعتمدت في هذا البحث على مراجع الأدب القديمة وفي طليعتها : الاغاني لأبي الفرج ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الشعراء والموشح للمرزباني ، ومعاهد التنصيص للعباسي ، وعيون الأخبار لابن قتيبه ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتاريخ الطبرى ، ومروج الذهب للمسعودى .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى : ٩
(٢) شعراء عباسيون : ٩
(٣) ضحى الاسلام : ١/ ١

واعتمدت على دواوين الشعراء في اثبات القصائد التي استشهدت بها في ثنايا البحث ومنها : ديوان كل من أبي تمام وأبي العتاهية وبشار وعلي بن الجهم ، والسيّد الحميرى وأشعار أبي الشيص ودعبل الخزاعيين .

واستفدت مما كتبه المعاصرون عن الأدب العباسي ، ومن أهم الكتب التي استفدت منها : العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ، والآداب العربية في العصر العباسي الأول لمحمد عبد المنعم خفاجي ، وأمراء الشعر العربي لانيس المقدسي ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى لمحمد مصطفى هداره ، وتاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجرى لنجيب البهبيتي ، وفي الأدب العباسي لعلي احمد الزبيدى ، وضحى الاسلام لأحمد أمين ، وحديث الأربعاء لطه حسين وغيرها .

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب ، وتناولت في الباب الأول الحياة العباسية بمختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وحاولت الربط بين واقع الحياة العباسية وما صوره الشعراء عن هذه الحياة ، وبينت أثر انتقال الخلافة الإسلامية إلى بغداد وما تبعه من اقتباس للنظم الفارسية وغيرها من النظم السياسية والادارية ، وصورت ما وصل اليه المجتمع العباسي من ترف وثراء ، وما انتشر فيه من الرقيق والجوارى والغناء ، وأوليت الحياة الثقافية عناية خاصة لما حصل من امتزاج بين الأجناس في العصر العباسي ، وما نتج عنه من اختلاط الثقافات والحضارات التي كانت سببا في انتشار التدوين ونشاط حركة التأليف والترجمة ، ونشأة العلوم الدينية واللغوية وعلم الكلام والاعتزال ، وقد تعمدت الاطالة في الحديث عن الحياة العباسية ، وذلك لتصوير المجتمع الذى عاش فيه الشعر وانبثق منه الشعراء ، ولتكون هذه الصورة بمثابة قاعدة متينة أنطلق منها لتوضيح الاتجاهات الشعرية ودوافعها من صميم الحياة العباسية ، والشعر فن يصور الحياة بمختلف عواطفها وحوادثها وانفعالاتها .

وتطور الشعر العباسي أمر لا ينكره أحد ، وقد أفضت في الكلام عن ألفاظ الشعر العباسي وأساليبه وأخيلته وأغراضه ومعانيه ، فالألفاظ قد رقت والأساليب قد لانت والأخيلة اتسعت ، والأغراض قد جُدِّدت ، والمعاني قد ابتُكِرت .

ومع أن الشعر لن لا يخضع للقواعد العلمية المحددة فانني قد حاولت تحديد مفهوم الشعر الإسلامي ، ومتى نصف القصيدة بأنها إسلامية ، ومتى ننعت الشاعر بأنه إسلامي وكيف نحكم على غرض بأنه إسلامي أيضا ، كما شرحت الأسباب الكامنة وراء إهمال الشعر الإسلامي وعدم العناية به من القدماء والمعاصرين .

وفي الباب الثاني قسمت الاتجاه الإسلامي في الشعر إلى أغراض مختلفة أهمها : الإلهيات والمديح والهجاء والدفاع عن الإسلام والرثاء والزهد والمواعظ ، وتحدثت في كل غرض عن نشأته ، وأهم شعرائه ، وأبرز معانيه ، وأهم ميزاته الفنية ، وترجمت لأعلام الشعراء تراجم موجزة ، ونبهت على ما يدخل في مفهومنا الإسلامي من كل غرض إذ لا يُعتبر كل ما قيل في مديح الخليفة المسلم شعراً إسلامياً وهكذا .

وأما الباب الثالث فجعلته في فصلين ، تناولت في أحدهما مناقشة الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي ، ومكانته بين الاتجاهات الشعرية الأخرى ، ثم ناقشت ما يراه الدكتور طه حسين من تمثيل أبي نواس وأضرابه للعصر العباسي ، كما أشرت إلى ما قاله أحمد الجواري من تحدي أبي العتاهية للقرآن الكريم في زهدياته ، وحاولت جهدي أن أتأنى قبل إصدار حكم من الأحكام ، وأن أتمهل قبل رد رأي من الآراء ، جاعلا الأمانة العلمية نصب عيني ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وفي الفصل الثاني ألقيت نظرة على أهم الخصائص الفنية العامة لهذا الشعر من حيث المعنى والأسلوب والموسيقى ، ثم ختمت البحث بتلخيص موجز لأهم النتائج التي توصلت إليها من إبرازٍ لاتجاهٍ هام من اتجاهات الشعر العربي في عصر من أزهى العصور الاسلامية ، ذلك الاتجاه الذي ظل يخدم العقيدة والفضيلة والخلق الكريم منذ أن شعّ نور الإسلام ، وانبثقت أشعة الهدى .

وفي الختام أسأل المولى القدير التوفيق فيما كتبت ، وأستلهم منه الصواب فيما سجلت ، إنه الهادي إلى طريق الحق والصواب .

* * * * *

الباب الأول

ويشتمل على :

١) الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي الأول .

٢) تطور الشعر في هذا العصر .

٣) مفهوم الشعر الإسلامي .

٤) عدم دراسة الشعر الإسلامي .

الحيـاة في العصر العباسي الأول

الحياة السياسـية :

تعـد الثورة العباسية نهاية للثورات الكثيرة التي نشبت ضد الأمويين والتي انتهت بارتقاء خلفاء بني العباس عرش الخلافة وسقوط الأمويين ، وكانت هذه الثورات تتخذ طريق العنف لإسقاط الخلافة الأموية ، كثورة ابن الزبير والخوارج والشـيعة وابن الأشعث ، وكانت دولة الأمويين تتعرض للخطر من هؤلاء أيما تعرض ، فقد شهر هؤلاء السلاح مراراً في وجوه الأمويين غير أنهم استطاعوا أن يكبحوا جماح الثائريـن خائضين إلى ذلك بحاراً من الدم .

وقد انتهت ثورة ابن الأشعث وابن الزبير ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهـم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج والشيعة فظلت تشتعل من حين إلى حين في العـراق جنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق ، وقد كلفت ثورات الخوارج الأمويين جهـوداً طائلة ، وبذلوا أرواحاً كثيرة في سبيل القضاء عليها .
وكانت تنضم إلى هذه الثورات فئات من الموالي الذين اضطهدهم بنو أمية وحرموهم المساواة بالعرب في الحقوق ، فكثرت مطالبتهم بالعدل الاجتماعي في الحقـوق والواجبات ، ووضع الموالي آمالهم في أبناء علي وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمـه من مساواة تامة بين العرب والموالي غير أنهم فقدوا في أبناء علي وأسرته الرجـل الحصيف الذى يستطيع تنظيم ثورتهم حتى يكتب لها النجاح .

وقد عمد العباسيون إلى التستر على دعوتهم حتى لا يصيبهم ما أصاب العلويـين من التنكيل ، وقد حدث ما جعل الأمر ينتقل إلى العباسيين بعد أن سالت دمـاء العلويين طويلا ، ذلك أن علي بن عبد الله بن عباس كان بقرية «الحميمه» بالشام فـنزل عليه ابن عمه أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) وهو الذى تناصره الشيعة الكيسـانية ،وحين دنت وفاته أوصى بنصيبه في الخلافة لابن عباس ، ثم تكـون لأولاده ، وبهذا انتقل الكيسانيون من ولائهم لأبي هاشم ، وصاروا يوالون علياً بن عبد الله بن عباس ، على اعتبار أنه إمامهم المنتظر .
وقد أعد العباسيون للأمر عدته ، فلما انتقل الرجاء إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بعد موت علي أقام الدعاة ، وجعل عليهم النقباء ، وأوصاهم بالتكتم ، وجعل قاعـدة

انطلاق الدعوة من خراسان ، ونظم الدعوة سراً من مقره بالحميمه ، ووضع خطة تنظيمها في يد ميسره في خراسان حيث كان الموالي يمتلئون سخطا على الأمويين ، ووصل الأمر الى أبي مسلمة الخلال ، فجدّ في الأمر ، وكان تطاحن الأمويين على الخلافة إيذاناً بسقوط دولتهم ، وتغلب في نهاية الأمر مروان بن محمد ، وفي هذه الأثناء كان أبو مسلم الخراساني يتولى قيادة الدعوة من موطنه ، وكان من دهاة الرجال ، واستطاع أن يشعل الحرب بين المضرية واليمنية لصالح العباسيين ، ثم أعلن أبو مسلم الثورة على نصر ابن سيار والي الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين تخفق ، وحواضر خراسان تسقط واحدة اثر أخرى في يده ، ويستصرخ والي الأمويين بمروان وبواليه على العراق ، ولكنهما كانا في شغل عنه بثورات الخوارج ، حتى استطاع الحسن بن قحطبة دخول الكوفة دون مقاومة وحينئذ تبرز إلى النور حكومة العباسيين وعلى رأسها أبو سلمة الخلال ، وعندما علم أبو العباس السفاح بدخول الحسن للكوفة خرج إليها في أهل بيته ، يتقدمهم أعمامه وأخوه وابن عمه ، واستمرت جيوش العباسيين تلاحق مروان بن محمد حتى لقي حتفه في «بوصير» من بلدان الصعيد لأواخر سنة ١٣٢ هـ.

وتذكر كتب التاريخ أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموي فتكاً ذريعاً حتى موتاهم لم يسلموا من العقاب ، فيقال إن قبور الخلفاء نُبِشت ، وحرقت بقايا الجثث بالنار (١) ، ماعدا قبري معاوية وعمر بن عبدالعزيز .

وحينما استقر الأمر للعباسيين رأوا أن يتخذوا من العراق موئلا لخلافتهم ، فرأى المنصور أن يبتعد بحاضرة الخلافة عن الكوفة مركز العلويين ، وحتى يأمن على نفسه من الفتن ، فاختار موقعها مع عدد من أصحابه بين دجلة والفرات ، وكانت بغداد مهداً لحضارات مختلفة قبل الاسلام كالكلدانية والفارسية والآرامية ، وما لبثت أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي ، إذ بنيت بها المساجد والقصور ، وتكاثر بها التجار والصناع وأمها الأدباء والعلماء من كل مكان ، فزخرت بالحياة ، ولم تزل بغداد حاضرة العباسيين حتى رأى المعتصم أن يعتزل بجنده فبنى سامراء شرقي دجلة سنة ٢٢١ هـ .

أما النظم السياسية والادارية في العصر العباسي فقد كانت نظماً ساسانية بحذافيرها ، فالحكم ينتقل بالوراثه ، ويطبعه الدين كما كان ذلك في الحكم الساساني .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : ٣/١٤١ .

وكان العباسيون يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين لأنهم من بيت النبوة ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم ، وأحاطوا خلافتهم بهالة من التقديس ، فهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد حاكى العباسيون الدواوين الساسانية فاتخذوا ديواناً للخراج ، وديواناً للرسائل وآخر للخاتم ، كما أخذ العباسيون من الساسانيين نظام الوزارة ، وكان أول من اتخذوه وزيراً أبا سلمة الخلال ، وكان جل وزرائهم من الفرس ، وقد ظل الفرس يديرون أمور الدولة مدة طويلة حتى نكبهم الرشيد ، وأتت بعدهم أسرة بني سهل في عهد المأمون وما بعده .

وتقاليد الساسانيين طُبقت حتى في لباس رجال الحاشية والموظفين ، ولا نغلوا اذا قلنا إن النظم السياسية والادارية في الدولة العباسية طبعت بطوابع فارسية قوية .

وقد واجه العباسيون كثيراً من الفتن والثورات كما واجهها أسلافهم الأمويون ، وكانت دوافع هذه الفتن والثورات ما بين سياسية ودينية ، وكان العلويون والخوارج أهم من وقف في وجه العباسيين ، فقد أخذ العلويون يشيعون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لأنهم أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورد عليهم العباسيون بأنه ينبغي أن يرجع في ذلك الى أصل حكم الله في المواريث ، والذي يقضي بتولي العباسيين ، وثار عدد من زعماء العلويين في فترات مختلفة ومنهم محمد بن عبد الله وأخوه ابراهيم ، وابراهيم بن موسى ثم من بعد محمد بن جعفر الصادق ، وانتهت ثوراتهم بالقضاء عليهم ، وكان التشيع يحظى بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين .

أما الخوارج فكانوا أقل شأناً ، فقد فتك بهم الأمويون فتكاً ذريعاً ، ولم يبق منهم سوى فلول في أنحاء متفرقة بعمان والجزيرة وخراسان ، وكانت ثورة الوليد بن طريف الشيباني ، وعبد السلام الخارجي ، وثورة خوارج عمان الاباضية أهم الثورات التي واجهها العباسيون من الخوارج ، واستطاعوا القضاء عليها ، ولذلك لم تترك أثراً واضحاً في الحياة الأدبية كما كانت في العصر الأموي الذي كثر فيه الشعراء المؤيدون للخوارج .

ونشبت الخلافات بين العباسيين أنفسهم ، فثار على المنصور عمه عبد الله سنة ١٣٦هـ ، وانتهت ثورته بقضاء أبي مسلم الخراساني عليه ، وتعقب المهدي الزنادقة ، وقضى على كثير منهم ، كما نشب الخلاف بين الأمين والمأمون وانتهى بالقضاء على الأمين سنة ١٩٨هـ .

وواجه المأمون ما بين سنة ٢٠١ هـ و سنة ٢٢٤ هـ ثورة بابك الخرمي ثم ثورة مازيار بن قارن بطبرستان ، وانتهى الأمر بقتلهما وصلبهما ، ويلاحظ نقطة سوداء في عهد المأمون وهي القول بفتنة خلق القرآن ، ولا ننسى أن نشير هنا الى انتصارات الرشيد على البيزنطيين وفتح المعتصم لعمورية .

وكان لهذه الأحداث السياسية الداخلية والخارجية أثر كبير على الحياة الأدبية ، كما كان لها صداها في نفوس الشعراء الذين رأوا أحداثا أنطقتهم ، وجعلتهم يعبرون عن اتجاهاتهم ومذاهبهم ، فبعضهم أيد العباسيين ودافع عن حقهم في الخلافة ، وبعض أيد العلويين وبكى على قتلاهم ، وقسم آخر أشاد بانتصارات الدولة على أعدائها في الداخل والخارج ، وكانت هذه الانتصارات مادة حية لملاحم رائعة نظمها الشعراء في البطولة والحماسة ورسم أروع الصور لانتصارات جيوش الاسلام ، فتغنى كثير من الشعراء بفتح عمورية ، وأشاد آخرون بانتصارات الرشيد على البيزنطيين ، وهللوا للقضاء على أعداء الدولة الثائرين أمثال بابك الخرمي ومازيار بن قارن ، وبذلك كان الوضع السياسي في هذا العصر محركا لعواطف الشعراء مما دفعهم الى تسجيل هذه الحوادث بأسلوب موجز وبيان ساحر أضاف ثروة فكرية الى رصيد الأدب العربي .

الحياة الاجتماعية :

كان العرب في حياتهم الأولى يميلون الى البداوة والخشونة ، وساعد على ذلك حياتهم البدائية التي كانوا يعيشونها ، وفي العصر الأموي بدأ الترف يدب في المجتمع الاسلامي ، وتوسعت الفتوحات الاسلامية ، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، ولكن مع هذا لم يصل الترف ، ولم تصل الحضارة في العصر الأموي الى ما وصلت اليه في العصر العباسي فعندما فتح العرب العراق وايران والشام ومصر ورثوا ما في الأولى من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية ، وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية .

وكان طبيعياً أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية ، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى بغداد غلبت عليهم الحضارة الساسانية ، ويبدو هذا واضحاً في بناء بغداد التي تشبه المدائن ، وجدير بنا هنا أن نبسط القول في بعض المظاهر الاجتماعية التي انتشرت في ذلك العصر من حضارة وثراء وترف ، وكيف انتشرت

تجارة الرقيق والجواري ، وشاع الغناء ، وما وصلت اليه الحياة من مجون ، وما تخللها من انحراف ديني كالشعوبية والزندقة ، وفي مقابل هذا كانت هناك طائفة تميل الى الزهد والورع ، وتبتعد عما انغمس فيه الناس من ترف ومجون .

ولما ورث العرب تلك الحضارات المختلفة حاكوها وقلدوها في نظمهم المختلفة وامتد تأثير هذه الحضارات الى الأدب واللغة والترجمة على ما سيأتي تفصيله في الحديث عن الحياة العقلية .

أما الترف والثراء فتروى لنا كتب التاريخ والأدب فيضاً من أخبار الخلفاء والولاة والقواد وعامة الشعب ، وما كانوا عليه من ثراء وترف ، ولقد كانت خزائن الدولة هي المعين على ذلك ، فقد كانت حمول الذهب والفضة تحمل اليها من أطراف الأرض ، حتى وصل دخل بيت المال في عهد الرشيد نحو سبعين[1] مليونا من الدنانير ، وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تُصَب في حجور الخلفاء ومن حولهم من الوزراء والقواد والولاة والشعراء والمغنين .

ونسوق هنا أمثلة لهذا الترف والثراء ، فقد رُوي أن المنصور فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام[2] ، وكان الخلفاء والوزراء والولاة يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين ، ورسم المهدى لمروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم ذائع مشهور وقد وصل الرشيد سلما الخاسر بعشرين ألف دينار لمدائحه فيه[3] ، ونافس الوزراء في ذلك الخلفاء ، وكان للبرامكة في هذا ما ليس لأحد ، وكذلك للفضل بن الربيع وبني سهل ، وتبعهم في ذلك القواد أمثال معن بن زائدة ، ويزيد المهلبي ، ومحمد الطوسي ، وآل طاهر .

وكان لهذه السيول الدافقة من الأموال أثرها الكبير في نهضة العلوم والآداب ، والفنون ، ولم تسبب كثرة الأموال النعيم فحسب ، بل دفعت الى الثراء في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة ، وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون ، وما الى ذلك من أدوات الزينة والملابس ، وكان حظ النساء من هذا الترف كبيرا فالحلي والعطور والعنبر تنثر بين أيديهن .

واذا كان الترف قد وصل الى هذا الحد فقد اقتصر على طائفة معينة من الأمة ، بينما توجد طبقات أخرى تعاني مرارة البؤس وشقاء الحياة ، ولعل هذا كان أحد الأسباب في كثرة الثورات المختلفة ضد العباسيين .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ١٢٧ ، وضحى الاسلام : ١/ ١١١ (٢) تاريخ الطبري: ٦/ ٣٢٧ .
(٣) الأغاني (ساسي) : ٢١/ ٧٧ .

وكانت مجالس الخلفاء صورة من صور الترف في هذا العصر ، وما تحويه من ذهب وفضة وغناء ونوادر وغير ذلك .

وهناك ظاهرة اجتماعية في العصر العباسي تستدعي الوقوف عندها ألا وهي كثرة الرقيق والجواري ، وشيوع الغناء ، فقد كثر الرقيق في هذا العصر كثرة مفرطة ، بسبب من كانوا يؤسرون في الحروب ، وبسبب انتشار تجارته ، حتى كان في بغداد شارع يسمى شارع الرقيق (١) وكان الرقيق يجلب من بلاد الزنج وافريقية الشرقية والهند وأواسط آسيا ، وكانت هذه التجارة موجودة في العصر الأموي ، ولكنها زادت في العصر العباسي حتى اكتظت بها القصور ، وكان رقيق النساء من الجواري اكثر عددا من رقيق الرجال ، وكانت الجواري من أجناس وثقافات وديانات مختلفة ، فمنهن السنديات والفارسيات والروميات والحبشيات ، وبسبب هذه الكثرة ، وذلك الاختلاف كان لهن أثر بعيد امتد الى قصور الخلافة ، وكان اكثر الخلفاء من أبنائهن ، وكانت قصورهم تمتلئ بالجواري والوصيفات ، وتبعهم في ذلك الوزراء والأمراء ، وكانت كثيرات من الجواري يثقفن بفنون الأدب ، بل كان منهن من يجيد نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي وسكن جارية محمود الورّاق .

وكان نصيب الغناء في حياة العباسيين كبيراً ، فقد شُغِلوا به أيّ شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم ، وقد انتقل الغناء من الحجاز الى العراق في أواخر عصر بني امية ، وأقيمت له الدور الكبيرة في العصر العباسي ، ونثرت الأموال على المغنين والمغنيات ، وكان أشهر المغنين في هذا العصر إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، وابن جامع ، ومخارق . وبلغ رقي هذا الفن وارتفاع شأنه في النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه واتقانه وكان الغناء سبباً في ارتفاع أثمان الجواري المغنيات ، وقد أشاعت القيان والجواري كثيراً من ضروب الرقة والظرف ، وكان لذلك أثره البالغ في الشعراء والشعر ، فشاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة ، واللمحة المعبرة .

وكان بجانب الثراء والرقيق والغناء انتشار المجون ، وشرب الخمر والغزل المكشوف والغزل بالمذكر ، وما الى ذلك مما يسيء الى الأخلاق الاسلامية الرفيعة ، وكان من أهم أسباب هذا الانحلال الخلقي ما أعطته الثورة العباسية للناس من حرية مسرفة فشرب الفرس الخمر وأدمنوا ، وتبعهم الناس في ذلك ، وكان من أسباب انتشار شرب الخمور اجتهاد بعض الفقهاء بتحليل بعض الأنبذة كنبيذ التمر والعسل ، وتهالك الناس

---

(١) مروج الذهب : ٣/ ٣١٦ .

على ادمان الخمر، حتى قيل إن الهادى والرشيد والأمين من الخلفاء قد شربوها[1] سواء كان هذا المشروب من النوع الذى حلله الفقهاء أم لا ، وأقبل عليها الشعراء والمغنون وخمريات أبي نواس أشهر من أن نذكرها ، وقد تغنى الشعراء في وصف نشوتها وأثرها في الجسد والعقل ، كما وصفوا دنانها ومجالسها وندمائها وسقاتها ، وكانت بساتين بغداد تمتلئ بالحانات التي يختلف اليها الشعراء وغيرهم من الفتيان .

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والاباحية وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة ، وأناس من ديانات شتى مجوسية ، وغير مجوسية فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان ، لا يردعهم قانون أو خلق أو دين ، كما دفع هذا الفساد الى الغزل المكشوف الذى لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل معا ، وكان مطيع بن إياس وبشار بن برد من أبرز الشعراء الذين نظموا غزلا مكشوفا ، كما شاعت آفة التعلق بالغلمان ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب ، وتبعه أبو نواس في ذلك.

ومن يتابع هذه السطور معي يظن أن العصر العباسي والمجتمع كان مجتمعا منحلا أسلم نفسه للشهوات والالحاد ، فمن ترف إلى غناء ، ومن مجون إلى زندقة وإدمان للخمر، ومع هذا كله نقول إن هذه الظواهر الاجتماعية إنما شاعت في طبقة معينة دون بقية الطبقات فالالحاد والزندقة كانت مقصورة في اكثر جمهورها على الفرس، والمجون كان ينتشر بصفة خاصة في طبقة المترفين ومن حولهم من الشعراء ، أما عامة الشعب فانها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونا ، واذا كانت حانات الكرخ قد اكتظت بالجوارى والقيان والمغنين ، فان مساجد بغداد كانت عامرة بالعبّاد والنساك ، وأهل التقوى والصلاح ، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر بالله واليوم الآخر ، وكان بعض الوعاظ يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخليفة أمثال عمرو بن عبيد ، وصالح بن عبد الجليل ، وابن السماك ، وكان الوعظ يلتحم بالقصص لأخذ العبرة والعظة .

وكان بجانب الوعاظ عدد كبير من النساك الذين تجنبوا ملذات الدنيا ، وعاشوا حياة كلها تبتل وعبادة ، وفي البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منثورات رائعة لأقوال مشاهيرهم أمثال سفيان الثورى وعبدالله بن المبارك والفضل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم .

وظهرت حركة الزهد في العصر العباسي الأول كرد فعل على تلك الحياة المترفة اللاهية التي لا تهتم بعبادة أو طاعة ، ولكن التصوف الإسلامي لم ينضج في هذا العصر وإنما نضج في العصر التالي ، وأخذت مقدماته في الظهور في هذا العصر .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٨/ ٤٨٩ ، والأغاني : ٥/ ٣٢٩ .

وهكذا كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ،صراع بين الترف والزهد ، بين المجون والعبادة ، بين الفساد والصلاح . إلا أن المجون والترف والزندقة كانت منتشرة في الطبقة العالية من المجتمع ، أما عامة الشعب فكانت تعيش حياة هادئة مطمئنة بعيدة عن الترف لا تعرف الزندقة والانحراف .

وكما كان الشعر العباسي حافلاً بتسجيل الأحداث السياسية ،كان صورة صادقة للحياة الاجتماعية فيه ، فوجدت صور متناقضة في هذا الشعر ،فكان أبو نواس وأضرابه يمثلون المجون والخلاعة والانحلال ، وكان أبو العتاهية وغيره من شعراء الزهد يمثلون حياة العفة والتقوى ، وصوّر كل من الطرفين حياته التي كان يعيشها ، ودعا الناس إلى أن يعيشوا مثله، فأبو نواس يدعو الى الخمر ومجالس الغناء ، وأبو العتاهية يدعو إلى العمل الصالح ونبذ الحياة الزائلة ، ومهما قيل من شك أو زيادة حول مجون أبي نواس أو زهد أبي العتاهية فانهما مع ذلك يمثلان على الاقل صورة للمجتمع وما يجرى فيه ، ويعبران عن حياة متناقضة يعيشها أفراد المجتمع العباسي .

الحيـــاة الثقافيـــة :

عاش العرب قبل الإسلام منعزلين تقريبا عن الحضارات المجاورة لهم ، وظلت حالهم على هذا الانعزال في عصر صدر الاسلام لانصرافهم عن كل شيء بالفتوح ، وبقوا على هـــذا الحال في العصر الأموى تقريبا عدا اتصالات بسيطة لم يكن لها أثر بعيد في الثقافة العربية لذلك ظلت الثقافة العربية ثقافة إسلامية عربية صرفة ، لم تتأثر بما حولها من الثقافات الأجنبية لا سيما وأن خلفاء بني أمية كانوا يتعصبون للعربية والعرب تعصباً شديدا .

وفي العصر العباسي وصلت الدولة إلى أقصى اتساعها ، فامتدت من حدود الصـــين وأواسط الهند شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ، وضمت بين جناحيها السند وخراســـان وما وراء النهر وايران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهي أوطان كثيرة عاشت فيهـا شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة .

وقد هيأ العباسيون لسكان هذه الأوطان كل أسباب الامتزاج ، بل إن طبيعة المجتمع فرضت نفسها على العباسيين فرضا ، فقد امتزج الجنس العربي بغيره من الأجناس الأخرى عن طريق المصاهرة وتسرى الاماء ،حتى أن بعض أمهات الخلفاء كانت من أصل غير عربي ، وقـــد استطاع الاسلام ــ بتعاليمه السمحة ــ أن يحدث امتزاجاً بين العناصر المختلفة ، وكان سكان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة من فهلوية إلى آرامية الى قبطية ، ولكن لم تلبث هـــذه

البلدان نحو قرن من الزمان حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة سكانها، وكان هذا تطوراً خطيراً تلته آثار بعيدة في الثقافة العربية والأدب العربي .

وقد أقبل الفرس بوجه خاص على التعرب إقبالاً منقطع النظير، حتى أصبح منهم الأدباء والشعراء والنحاة، ومع هذا لم تمت لغات هذه الشعوب بل بقيت على نطاق ضيق مما نجد أثره في اللغة العربية، إذ نجد بعض المفردات من أصل هندى أو فارسي أو يوناني، وكانت تعرب أحياناً بحيث تتفق مع اللسان العربي، وقد ألف العرب في الكلمات الدخيلة مصنفات كثيرة تميزاً لها عن المفردات العربية .

ومما لا جدال فيه أن العربية الفصحى كانت المثل الأعلى للناس في هذا العصر وخاصة الطبقات المثقفة، وكان أهم ما دعمها القرآن الكريم، ولا نبالغ إذا قلنا إن ألوان الثقافات العامة الموجودة في البلدان المفتوحة تحولت الى العربية دون حاجة الى ترجمتها ترجمة منظمة، وذلك لأن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً، فكان أمراً عادياً أن تتحول معهم ثقافاتهم، وألا تنتظر حتى يُنظم لها النقل، وتُعد للترجمة .

وكانت الثقافة الفارسية والهندية واليونانية من أهم الثقافات التي أثرت في الفكر العربي واللغة العربية، وكانت الفارسية أبعد تأثيراً في المحيط العربي من غيرها، فقد دخل جمهور الفرس في الاسلام، واقتبس العرب كثيراً من صور حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم .

وكانت الحركة العلمية في العصر العباسي على أشدها، وأخذ العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات، يتقصونها وينقلونها بكل موادها، وكان الناشيء يتعلم في الكتاتيب مبادىء القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم ومسائل الحساب وبعض الأشعار والأمثال وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى، جمعت بين العبادة وطلب العلم، وكان الاستاذ يستند عادة الى اسطوانة في المسجد ويتحلق حوله طلابه، يكتبون ما يلقيه أو يمليه، ولكل فرع من فروع المعرفة حلقة خاصة أو حلقات مختلفة، فهذه حلقية لفقيه وتلك أخرى لمحدث وثالثة للغوى ..الخ . ونشأت طائفة من العلماء الذين نوعوا معارفهم فكانوا يتحدثون في مختلف المعارف .

وقد شجع الخلفاء والوزراء جميع البارزين في مختلف العلوم، فعندما يبزغ نجم أحدهم يُستدعى إلى دار الخلافة، وتسبغ عليه العطايا، فكان هذا من أهم الأسباب في انتشار الحركة العلمية إضافة إلى انتشار صناعة الورق بدلا من الكتابة على الجلود والقراطيس المصنوعة من ورق البردى بمصر، وسبب ثالث ساعد على انتشار الحركة العلمية وهو أن

مجالس الخلفاء والوزراء كانت ندوات علمية يتناظر فيها العلماء كمجلس المهدى والرشيد والمأمون ٠

وقد تغلغلت الثقافة والمعرفة في جميع الأوساط حتى أوساط العامة ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء استطاعت أن تنقل إلى العربية كثيراً من العلوم والمعارف ، مما دعم العربية دعما كبيراً بما أحدثه هؤلاء من علوم ، وما خلفوه من آثار ٠

وكانت حركة الترجمة ، وما نقل إلى العربية سببا من أسباب ازدهار الحركة الثقافية في العصر العباسي ، وقد وُجِدت الترجمة في العصر الأموى على نطاق ضيق ٠

ولو تتبعنا حركة الترجمة في هذا العصر لطال بنا الحديث ، ولكن يكفي أن نعلم بأن الخلفاء العباسيين في أول عهدهم شجعوا الترجمة والنقل ، وأنفقوا عليهما الأموال الطائلة ، ففي عهد الرشيد نشطت حركة الترجمة نشاطاً واسعا ، حيث أُنشِئت دار الحكمة ، ووُظِّفت فيها طائفة كبيرة من المترجمين ، وجُلِبت الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان للبرامكة فضل عظيم في هذا المجال ، وقد وصلت الترجمة إلى أقصى غاياتها في عهد المأمون ٠

أما العلوم العربية فقد لاقت اهتماماً كبيراً لا سيما العلوم الدينية واللغوية ، فعندما شاع اللحن بين الأمم المستعربة خاف العرب على لغتهم أن تضيع مقوماتها الأصلية بين تلك الشعوب التي ضعفت ملكتهم اللغوية ، وفشا فيهم اللحن ، فانبروا يتتبعون العربية في القرآن الكريم وأشعار العرب ، وخرجوا إلى البادية التي لم تتأثر بما تأثرت به المدن من حضارة واختلاط ، وكانوا يهدفون إلى تقويم الألسنة واكتساب السليقة اللغوية السليمة وقد جمعوا بين رواية الأشعار وجمعها ووضع قواعد النحو ومصطلحاته ، كما اعتنوا بأنساب العرب وأخبارهم ، ونشأت نتيجة لذلك كله عدة طبقات من اللغويين والنحاة ، كما تعددت المدارس النحوية كمدرستي الكوفة والبصرة ٠

وإلى جانب العلوم اللغوية ازدهرت العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال ، وقد نشأت العلوم في ظلال الحديث النبوى الشريف الذى حمل كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير ، ودوّن العلماء هذه العلوم تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، ثم اتخذ العلماء طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، كما نشأ نتيجة لذلك علم التعديل والتجريح الذى يحيط الحديث بسياج من الصحة ، وكثرت المصنفات في الفقه والحديث والتفسير ، ونشأت المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة ٠

وازدهر علم الكلام في هذا العصر ، والمراد بعلم الكلام الجدل الديني في أصول العقيدة

ومبادئها ، وكانت فرقة المعتزلة من أهم فرق المتكلمين الذين ملأوا بجدالهم وحجاجهم مساجد البصرة ، وجذبوا بحسن بيانهم وقوة إقناعهم كثيراً من الشباب ، حتى أن المأمون اعتنق عقيدتهم وأثار الفتنة بخلق القرآن ، ويعتبر العصر العباسي عصر الاعتزال فقد بلغ من الازدهار أن صبغ العقول بصبغة فلسفية ، وعودها على دقة التعليل والمهارة في استنباط خفيات المعاني مع البرهان والحجة ، وأثر الاعتزال واضح في جميع جوانب الفكر العباسي ، ومنها الأدب خاصة فنجد كثيراً من الشعراء تتلمذوا على أيدى المعتزلة كبشار وأبي نواس والعتابي ومنصور النمرى ، وقيل في سبب تسميتهم بالمعتزلة أنهم اعتزلوا المنازعات بين الخوارج وأهل السنة والشيعة ، ووقفوا على الحياد ، وكان مؤسس المعتزلة واصل بن عطاء المتوفي سنة ١٣١ هـ ، وبعد وفاته مضى تلاميذه يفرعون مسائل الاعتزال فنشأت عن ذلك شعب اعتزالية كثيرة أهمها : البشرية والثمامية والهذيلية والنظامية .

وإذا كان مجرى الأحداث السياسية قد ظهر أثره على الشعر العباسي ، فان الحياة الثقافية كان أثرها أبعد وأعمق في الشعر العباسي ، فظهر أثر الثقافات المختلفة في الألفاظ والمعاني والأساليب ، واصطبغت معاني الشعراء بما وصل إليهم من المعاني والفلسفة ، وما قرأوه من الحكم والأمثال عن اللغات الأخرى ، وكان لظهور العلوم الدينية أثر في توجيه بعض الشعراء الى المعاني الاسلامية الرائعة ، وكان الشعراء يستمعون إلى المحدثين والوعاظ وغيرهم ، ويجعلون مما سمعوه أدلة يحتجون بها ، وعبراً ينصحون بالاعتبار بها ، وظهر أثر الاعتزال والفلسفة واضحاً في كثير من معاني وألفاظ الشعر العباسي . وسيأتي تفصيل الحديث عن تطور الشعر العباسي في ألفاظه ومعانيه وأغراضه ، ويهمنا أن نشير هنا الى أن انتشار الفرق الدينية كان سببا في نشأة غرض من أغراض الشعر الاسلامي وهو الشعر المذهبي الذى يدافع فيه الشعراء الاسلاميون عن مذهب أهل السنة والجماعة ، ويشيدون بمن دافع عنه وأيده ، ويثلبون من هاجمه وعاداه ، ووقف كثير من الشعراء يرد على المعتزلة ويدحض ما جاءوا به من فلسفات أفسدت العقائد السليمة ، ورفعت العقل البشرى إلى مستوى أرفع من مستواه ، مما جعل كثيراً من الناس يضلون بين هذا الجدال العقيم .

— ٠ — ٠ —

ازدهار الشعر في العصر العباسي

حينما نتذكر الشعر العباسي نتذكر البيان وبراعة التصوير ودقة المعنى وسمو الخيال واتساعه ، وقد يكون هذا الحكم حكم المتسرع ، ولكن سيتضح لنا أن ما قلناه عن الشعر العباسي صحيح ، وليس معنى هذا أن الشعر في بقية العصور أصيب بالهزال أو الضعف ، ولكنه كان ولا يزال محل عناية ورعاية لأنه ينبع من الأحاسيس ، ويعبر عن المشاعر ، والمشاعر موجودة في كل زمان ومكان .

وكانت للشعر قيمته الكبرى في الجاهلية ، وعظمت هذه المكانة في عصر بني أمية ولكن الاختلاط في العصر العباسي ، وامتزاج العرب بغيرهم كان له أثره الكبير على هذا النتاج الجديد في الأدب والفكر .

وقد جمع الشعر العباسي بين فصاحة البداوة ورقة الحضارة وإبداعها ، ونشأ عن ذلك شعراء تعلموا العربية ، وسُمّوا بالمولدين ، وكان منهم العظماء كأبي نواس وبشار بن برد وقد شجع خلفاء بني العباس العلم والأدب والفن ، وكان للشعر نصيب الأسد من هذا التشجيع ، فعقدوا له المواسم ، واستمعوا للقصائد ، ومنحوا الجوائز والهبات ، وبذلك توفرت الأسباب لتطور الشعر من اختلاط ثقافي وتشجيع مادي ومعنوي ، فبلغ الشعر في هذا العصر غاية لم يبلغها قبله ولا بعده إلا عند المتنبي — وهو ممن أدرك أواخر العصر العباسي الأول — فقد رقت الألفاظ والأساليب ، واستُحدِثت المعاني البارعة ونظم الشعراء في أغراض جديدة لم يسبق أن نظم الشعراء فيها ، كما جدّدوا الأغراض القديمة ، وأضفوا عليها من براعتهم حللاً جديدة بعد الصقل والتهذيب .

أما ألفاظ الشعر وأساليبه فهما عنوان الذوق ، ودليل الثقافة ، ومقياس الوضوح والابداع وقد نهل شعراء هذا العصر من العربية حتى ارتووا ، وحفظوا من عيون الشعر العربي القديم والجديد ، وعاشوا في وقت ازدهار اللغة وعنفوان مجدها ، لذلك كله فقد هجر الشعراء الالفاظ الغريبة والحوشية ، وابتعدوا عن التراكيب الغامضة والعبارات الملتوية وقل أن يحتاج المرء إلى معجم حين يقرأ لشاعر من الشعراء ليكشف عن معنى اللفظ أو الهدف من التركيب .

وكانت سمة الوضوح ظاهرة على كثير من الشعراء كأبي العتاهية وأبي نواس وابن المعتز والبحتري ، وكانت الألفاظ مع وضوحها محافظة على فصاحتها ، لأن الشعراء ألموا بمفردات اللغة ، وحفظوا القديم والجديد من الشعر ، وعاشوا في أوج قوة اللغة ، وكان

للغويين دور كبير في المحافظة على فصاحة اللغة ، فقد سجلوا أشعار الجاهليين والاسلاميين ، وكانوا حراس الشعر[١] وسدنته ، فقد عرضوا نماذج الشعر القديم على الشعراء ، وتمسكوا به تمسكاً شديدا ، وكان الشعراء يعرضون عليهم قصائدهم قبل نشرها في كثير من الأحيان ، وكان تعصب اللغويين للقديم شديدا ، يقول أبو عمرو[٢] بن العلاء : "إن المحدثين كلٌّ على غيرهم ، إن قالوا حسناً فقد سُبِقوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم" . ولعل هذا خطأ في تقويم الشعر ، فالجيد جيد في كل زمان ومكان ، وعلى كل حال فقد كانت لجهودهم آثار طيبة في احتذاء القديم في فصاحته وسلامته من العيوب اللغوية .

ونتيجة للامتزاج الثقافي فقد دخلت لغة الشعراء بعض الألفاظ الأجنبية — لا سيما الفارسية — . ولكنها كانت قليلة ، ومع قلتها فقد كان الشعراء يوردون الألفاظ الأجنبية في شعرهم تظرفاً وتطلعاً ، وظهرت هذه الالفاظ بوجه خاص عند أبي نواس ، وهذا لا يعني ضعف العربية أو عدم قدرتها على التعبير ، يقول محمد[٣] خفاجي : " فان العربية كانت أعز من أن تحني رأسها للعواصف ، وظلت كما هي لغة التفكير والأدب ، وان سايرت حركة الرقي ، ولم تقف جامدة ضعيفة الاحساس بالحياة " ويرى شوقي[٤] ضيف أن القول بضيم الفارسية للعربية ادعاء فيه كثير من المبالغة ، فقد كانت الفصحى أقوى من أن تنتقص حتى لدى من كانوا يحسنون الفارسية كأبي نواس ، فقد كانت العربية تتعمق جوهر نفسه ، وذلك بفضل اللغويين الذين زودوه بها ، وبفضل اقامته بالبادية ، وحفظه لكثير من دواوين الشعر القديم ، حتى قالوا[٥] إنه يحفظ دواوين ستين امرأة فضلا عن الرجال ، ويشبهه في هذا بشار الفارسي الأصيل وزعيم الشعراء المحدثين . فالشاعر العباسي بقي محافظاً على عربيته حتى في أسلوبه المولد الذى يميل إلى الرقة والسهولة والوضوح ، مع جودة السبك وإبداع المعنى ، وقد نشأ هذا الأسلوب بدافع التحضر في العصر العباسي ، وهو أسلوب يقوم على أساس من القديم وعدة من الذوق الحضرى الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها ، ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة ، فتُنفى الالفاظ العامية المبتذلة ، كما تُنفى الألفاظ الغريبة والحوشية ، فكان بذلك أسلوباً بين الغرابة والابتذال ، بين لغة البدو الزاخرة

---

(١) العصر العباسي الأول : ١٣٩ . (٢) الأغاني (ساسى) : ١٦ / ١٠٩ .
(٣) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ٧٦ . (٤) العصر العباسي الأول: ١٤٢ .
(٥) طبقات ابن المعتز : ١٩٤ .

بالكلمات الحوشية ولغة العامة الحافلة بالكلمات المبتذلة .

وكان بشار أول زعماء هذا الأسلوب ، وفيه يقول ابن المعتز[١] : "كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاجة ، وأسلس على اللسان من الماء العذب" . وتميز هذا الأسلوب المولد أيضا بمحاولة استبعاد المقدمة للقصيدة ، والتي ظلت موروثة منذ الجاهلية حتى العصر العباسي ، وفيها يصف الشاعر الأطلال والدمن ، ويستطرد إلى وصف الصحراء والراحلة التي يركبها والحيوان الذى شاهده في الطريق ، إلى أن يصل إلى غرضه المقصود ، وقد تكون هذه المقدمة نسيباً يجعله الشاعر كتشويق لموضوعه .

وكان ما جدّ في العصر العباسي من مظاهر الحضارة سبباً في محاولة استبعاد هذه المقدمة ، فقد بُنيت القصور ، وانتشرت الحدائق ، وشاع شرب الخمر ، وصارت الحياة ناعمة مترفة ، فكان لزاماً على الشاعر أن يعبر عن واقعه الذى يعيش فيه ، وقد سخر أبو نواس من الشعراء الذين يبكون الأطلال والديار ، ونصحهم بوصف الخمر ولذتها يقول :

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ... لا در درك قل لي من بنو أسد ؟

ويقول :

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتبلي عهد جدّتها الخطوب

على أنه كان ينسى ثورته على المقدمة المذكورة إذا مدح أو هجا ، ولعله كان يحسب لقوة القديم حسابها ، ويراعي أذواق[٢] الخلفاء .

وبعض الشعراء انصرف إلى وصف القصور والبساتين وجمال الطبيعة ، ومع هذا كله بقي الشاعر العباسي محافظاً على التقليد الموروث في الجملة ، على الرغم من أنه كان لا يشاهد تلك المناظر التي يصفها ، وربما كان هذا حنيناً وتذكاراً للوطن القديم ، زيادة على أن نسخ القديم بالمرة شيء صعب .

وكانت أهم العوامل التي أثرت في ألفاظ الشعر وأساليبه ثلاثة : الحضارة ، واختلاط العرب بغيرهم ، والغناء . أما تأثير الحضارة فقد أدى إلى رقة ألفاظ الشعر وأساليبه حتى صارت تسيل رقة وجمالا ، واستبعاد الألفاظ الغريبة والحوشية والأساليب

---

(١) طبقات ابن المعتز : ٢٨ .
(٢) الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث لأحمد الجواري : ٣٧٧ .

الركيكة ، كما حاول بعض الشعراء استبعاد المقدمة الموروثة ، وزخرف الشعراء لذلك أشعارهم بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية واستعارة ، وان كان البديع لم يظهر بشكل واضح إلا في العصر العباسي الأول عند أبي تمام ، ولننظر إليه وهو يصف بعيره بالسقم :

رعته الفيافي بعدما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فقد جمع بين الطباق والاستعارة وروعة التصوير .

أما تأثير الغناء فقد ظهر في انتقاء ألفاظ الشعر وجودة اختيارها ، وكانت مجالس الأدب تمتزج بمجالس الغناء ، فنظم الشعراء المقطوعات للمغنين ، واختاروا الألفاظ الرشيقة والأوزان المستحدثة القصيرة ، وابتعدوا عن الأوزان الطويلة التي لا تناسب الغناء .

أما تأثير الثقافات المختلفة على ألفاظ الشعر وأساليبه فبدا واضحاً في دخول بعض الألفاظ الأجنبية ، وفي شيوع الاصطلاحات العلمية على ألسنة الشعراء بعد أن كانت تجرى على ألسنة الفلاسفة وعلماء الكلام .

وكان للحياة في العصر العباسي أثر كبير على معاني الشعر وأخيلته ، وقد فرضت الحياة العباسية نفسها على العباسيين فرضاً ، ولم يقف الشعراء مكتوفي الأيدى حيال ما يجرى حولهم من تطور ، وقد تطورت الحياة الاجتماعية والعقلية في هذا العصر تطوراً كبيرا سبق (١) تفصيله في أول البحث .

وكان للحضارة المادية والعقلية أثرهما الكبير على معاني الشعراء وأخيلتهم ، فقد أصبحت الحضارة المادية معيناً لا ينضب استمد منها الشعراء أخيلتهم الفسيحة ومعانيهم المبتكرة فهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتمتلئ بالغناء والغزل والمجون ، ذلك إلى طبيعة جميلة ورياض غناء وحدائق مزهرة ، ففجرت هذه المشاهد قرائح الشعراء وسمت بخيالهم ، وارتفعت بمعانيهم ، فأحسنوا التشبيه والمجاز والكناية ، وأبدعوا في الاستعارة والمبالغة المقبولة ، وإنما يحلق الخيال بعيداً حينما يتهيأ له الأفق الرحب فبعد أن كان الشاعر يبتدئ قصيدته بالوقوف على الأطلال ، بدّل ذلك بوصف الطبيعة من أزهار وقصور وبساتين ، بل إن بعض الشعراء خص وصف جمال الطبيعة بمقطوعات كاملة .

وكان أثر الحياة العقلية في هذا العصر كبيراً على المعاني والأخيلة ، ونستطيع تلخيص

---

(١) انظر الحياة الاجتماعية والعقلية في أول البحث : ٥ وما بعدها .

تطور المعاني والأخيلة في النقاط التالية :

١ــ جدّد الشعراء في هذا العصر بعض المعاني القديمة بما تمليه عليهم حضارتهم فزادوا ونقصوا ، وأوجزوا وأطنبوا ، وصبغوا المعاني بصيغة جديدة حتى كأنها من صنعهم ، فهذا النابغة يصف قدرة النعمان بقوله :

فانك كالليل الذى هو مدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ويأتي سلم الخاسر ليبدع في المعنى نفسه فيقول :

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا مهرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب

٢ــ ابتكار المعاني ودقتها واستقصائها ، وهذا الابتكار للمعاني لا يعد ولا يحصى ، فقد ابتكر الشعراء العباسيون من المعاني الجديدة ما لا يحصر ، وذلك بسبب كثرة مشاهداتهم وتنوع ثقافتهم ، واتصفت مع جدتها بالجمال والابداع ، واستمع إلى بشار يتحدث عن عشق الاذن بقوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى ؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وهذا أبو تمام يستقصي المعنى في تكذيب المنجمين :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

ويحيط بالمعنى من كل جانب في ثمانية أبيات .

٣ــ قوة التصوير وبراعة الخيال ، نتيجة للحياة العقلية التي أثرت في خيال الشاعر العباسي ، وأطلت عليه الدقة والبراعة ، وهذا بشار يصف الجيش والقتال ويبدع اكثر من إبداع المبصرين فيقول :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والظل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (١)

---

(١) الديوان : ١/ ٣٠٥ .

٤ــ ظهور أثر الفلسفة والثقافات على الشعر ، لأن الشاعر العباسي قد قرأ تلك الكتب المترجمة من هندية وفارسية ويونانية ، وحضر مجالس أهل الملل والنحل وما يدور فيها من الفلسفة والمنطق ، وعلم الكلام الذى يعتمد على الفلسفة لم ينشأ الا في هذا العصر ، فطبعت معاني الشعراء بطوابع عقلية دقيقة ، وأوردوا في هذه المعاني البراهين العقلية ، واعتمدوا على التعليل ، يقول أبو نواس في وصف الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك

ويقسم بشار العّي إلى أقسام :

وعي الفعال كعي المقال وفي الصمت عيّ كعيّ الكلم

ويظهر أثر المذاهب الكلامية على ألسنة الشعراء كقول أبي تمام يمدح أبا سعيد الثغرى :

عمرّي عظم الدين جهميّ الندى ينفي القوى ويثبت التكليفا (١)

ويبدو التعليل وإدلاء البراهين واضحا عند الشعراء ، وهذا بشار يقول :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تُعَدَّ معايبه (٢)

ويقول أبو تمام معللاً لضيق ذات يده :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي (٣)

٥ــ كثرة الحكم والأمثال ، وشيوع المبالغة والتهويل ، وقد يكون سبب ذلك الاقتباس من الثقافات المترجمة ، ويقال إنه كان في ديوان صالح ابن عبد القدوس ألف مثل للعجم وكان لأبي العتاهية أرجوزة تسمى " ذات الأمثال " تضم أربعة آلاف مثل وحكمة .
أما المبالغة فقد ظهرت لأسباب عدة منها : التأثر بالفرس لفرامهم بالمبالغة والتفتح أمام آفاق الحضارة الجديدة ، وتشجيع الخلفاء لهذه المبالغات ، يقول أبو تمام في مدح المعتصم عندما فتح عمورية :

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب (٤)

وكانت المبالغة قد وصلت إلى غايتها في العصر العباسي الثاني عند المتنبي ومعاصريه .

---

(١) ديوان أبي تمام : ٢/ ٣٨٧ .
(٢) الديوان : ٣/ ٧٧ .
(٣) الديوان : ١/ ٣٠٥ .
(٤) الديوان : ١/ ٤٧ .

وبراعة الاستهلال ، وحسن الانتقال ظاهرتان اتصف بهما الشعر العباسي ، الى جانب تلك الظواهر العديدة التي تحدثنا عنها .

واستمد الشاعر العباسي أغراض شعره من المجتمع الذى يعيش فيه ، ولبى في أغراضه حاجات عصره ومتطلبات حياته ، وقد تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ، وجدّت في المجتمع عادات وتقاليد ، وجارى الشاعر الحياة في ذلك كله فتنوعت أغراض شعره ، وتناول بالتهذيب والصقل أغراض الشعر القديمة بما يناسب عصره ، ونظم في أغراض جديدة فرضتها عليه طبيعة الحياة .

أما الأغراض التي جددها الشاعر العباسي فهي تلك الأغراض القديمة التي تناولها الشعراء الأقدمون من مدح وهجاء ورثاء ونسيب وفخر ، واستطاع الشاعر العباسي أن يصبغها بصبغة عصره ، ويضيف عليها حللا من آثار حضارته ، وأبعد عنها ما لا يلائم ذوقه وعصره ، ولبى في أغراضه التي جدّدها مطالب الخلفاء والوزراء ، أو تعصب لمذهب ديني أو سياسي .

وأول الأغراض المجدّدة المديح ، ذلك الغرض القديم الذى تغنى فيه الشعراء بفضائل ممدوحيهم ، ووصفوهم بأكرم الخلال وأنبل الصفات ، وبالغوا في الثناء عليهم إن صدقا وإن كذبا .

وكان الشاعر الجاهلي والاسلامي يصور المثالية الخلقية في ممدوحه ، ويمدحه بعدله وسياسته الحكيمة إن كان خليفة ، وبشجاعته وبطولته إن كان قائدا ، وترددت هذه النغمات عند شعراء هذا العصر ، واستنبطوا معاني جديدة تفوق الحصر ، وأبدعوا في وصف السماحة والحلم والمروءة والعفة وعلو الهمة والشجاعة ، وأصبح الشعراء يرسمون صورة مثالية للحاكم ، وما ينبغي أن يكون عليه من الأخذ بدستور الشريعة الاسلامية ، والاتصاف بصفات رجالها المخلصين .

وتقصى الشعراء في مدائحهم جميع الأحداث التي حدثت في عصورهم ، ووصفوها وخاصة ما حدث من الثورات والفتن الداخلية ، وأبدعوا في وصف حروب الدولة مع أعدائها من الترك والبيزنطيين ، وأصبحت قصائد المديح في هذا العصر تشبه وثائق تاريخية ، وتحول المديح في بعض الأحيان إلى تاريخ .

وكان أهم ما سجلته قصائد المديح تلك الأحداث التي وقعت بين الدولة الاسلامية وبين أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فهناك روائع لأشجع السلمى حين تغنى بفتح الرشيد لهرقلة ، وروائع أبي تمام في إشادته بفتح المعتصم لعمورية وأنقرة .

وتجلت في كثير من قصائد المديح أروع المعاني الاسلامية ، وخاصة ما قاله الشعراء في الحماسة ووصف الحروب بين الدولة وأعدائها ، وعبروا بذلك عن مشاعر المسلمين المفعمة بالفرح والمزهوة بالنصر .

وقد اهتم الشاعر العباسي في قصائد مديحه بالفضائل المعنوية من رزانة العقل والحلم وسداد الرأى ، وانصرف بذلك عن الفضائل الحسية في أكثر قصائده.

وظاهرة مدح المدن والتعصب لها جديدة في قصيدة المديح ، ونلحظ أبيات الحكمة المبثوثة في ثنايا المدائح نتيجة للتجارب الخاصة لدى الشعراء ،وما اقتبسوه من حكم الفرس والهنود .

ووجود الأحزاب السياسية دفع إلى المديح السياسي والدفاع عن حزب سياسي معين وكان الحزب العباسي والحزب العلوى من أهم الأحزاب السياسية التي نالت كثيراً من مناصرة الشعراء .

والمبالغات الشديدة كثيرة في مدائح العباسيين لا سيما عند المتنبي ومن عاصره في العصر العباسي الثاني ،وتصل المبالغة إلى حد يفسد معه المعنى ، ويخرج به الممدوح عن صفات البشر ، يقول أبو نواس في مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق (١)

والهجاء غرض قديم من أغراض الشعر العربي ،فن يناقض المديح ، ويسلب المهجو صفات الرجولة من شجاعة وكرم وحلم ومروءة وغيرها .

ويتصل الهجاء بحياة الشعب اتصالا أقوى من اتصال المديح ،وقد تطور الهجاء في العصر العباسي ، وأصبحنا لا نرى نظائر لنقائض جرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموى ،بل اتجه الهجاء اتجاهاً جديداً يحمل في طياته الفجور والفساد ، وأصبح الشعراء العباسيون لا يتورعون عن تتبع العورات ، ووصم المهجو باللواط والزنا وما إلى ذلك من فحش ودعارة .

وكانت الحياة اللينة الرغيدة وتوفر أسباب الراحة وضعف الوازع الديني ،وانتشار اللهو والمجون أسباباً دفعت إلى هذا النوع من الهجاء المقذع الذى يترفع الانسان النزيه عن ذكره على لسانه ، ولم يكتف الشعراء بسلب المهجو صفات الرجولة ،والافحاش في السب ،بل اتجهوا في الهجاء اتجاهاً آخر هو إضحاك الناس والسخرية من المهجو ودعا إلى ذلك الفراغ وحاجة الناس إلى المسامرة والاضحاك ، يقول حماد عجرد في هجاء بشار :

ما خلق الله شبيهاً له من جنه طراً ومن إنسه
والله ما الخنزير في نتنه بربعه في النتن أو خمسه (٢)

---

(١) الديوان : ص ٦٣ .
(٢) الاغاني : ١٤/ ٣٣٠ .

وبذلك أصبح الشاعر العباسي يصور المهجو صورة تستدعي الضحك وتجلب على السخرية وتشبه هذه الصورة الصورة " الكاريكاتورية " في عصرنا الحاضر .

وشاع في العصر العباسي الهجاء بالزندقة والمجون واتباع المذاهب الدينية المنحرفة ، وكان سبب ذلك انتشار الزندقة والملل المختلفة .

وتأثر الهجاء في العصر العباسي بالحياة الجديدة ، واتجه إلى الفحش والاقذاع إلى جانب إثارة الضحك والسخرية .

أما الرثاء فهو فن الحزن والأسى ،عرفه الشعر العربي في عصوره القديمة ، ويتميز غالبا بصدق العاطفة وحرارة اللوعة ، ويصب فيه الشاعر أروع مشاعر الحزن وأصدق الاحاسيس ويكون ذلك عندما يرثي قريبا أو صديقا أو ابنا .

والمراثي صورة لفجيعة كبرى وخطب فادح وخسارة عظمى ،ضاعت بسببها الآمال ، ومات الوفاء والكرم ، وانتهت الشجاعة بعد وفاة هذا الرجل العظيم ،وكلما كان الشاعر مثيراً للأشجان موقظا للأسى في النفوس ،كلما كان ناجحاً في الوصول إلى غرضه .

والحضارة العباسية وما فيها من مظاهر الترف والرقة كانت سبباً في رقة المشاعر وتدفق العواطف وارهاف الاحاسيس ،وكانت المراثي في العصر العباسي صورة تفيض بالحزن ، وتمتلئ بالأسى ، وتعبر عن العواطف الصادقة ،وتثير في النفس لواعج الهم والحزن .

واندفع شعراء العصر العباسي يبكون خلفاءهم وقوادهم بكاء حاراً ،يصور الخلفاء في عدلهم وشجاعتهم وكرمهم ، ويصور القواد في بطولتهم واقدامهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا ، وامتزج الرثاء بالحماسة ، ومضى الشاعر يمجد البطولة في المفقود تمجيداً يثير الحميّة في النفوس ،ويدعو الشباب إلى الدفاع عن عرين الإسلام ،ومن أصدق الأمثلة على هذا ما قاله أبو تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي قائد المأمون ، والذي خرّ صريعا في ساحة الشرف ، وفيه يقول :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

توفيت الآمال بعد محمدٍ ... وأصبح في شغل عن السَّفْر السَّفْرُ

وسجل الشعراء صفحات مشرقة لأعمال الخلفاء ، وبطولة القواد ، صفحات امتزج فيها الحماس بالحزن والأسى .

وتنافس الشعراء العباسيون في استنباط المعاني النادرة في مراثيهم ،ومن طريف هذه المعاني قول مسلم بن الوليد في رثاء شخص :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر (١)

---

(١) ديوان مسلم : ٣٢٠ .

وعبر كثير من شعراء العصر العباسي عن حزنهم على قتلى الشيعة ،وسجلوا قصائد تفيض باللوعة ، وتستدر الدموع ، وتصور ما حل بهؤلاء من إهانة وقتل ،وما نزل بهم من كوارث ، وكان السيد الحميرى ودعبل الخزاعي وديك الجن من أبرز الشعراء الذين بكوا قتلى الشيعة ، وأطالوا هذا البكاء .

وظهرت في الرثاء العباسي ضروب جديدة لم تكن معروفة من قبل ،ومنها رثاء المدن الزائلة التي تعرضت للخراب ونزلت بها الكوارث ، كما رثى بعض الشعراء الحيوانات بعد موتها ، وعبروا عن حزنهم لفقدها .

والغزل فن أجاد فيه الشاعر العباسي وأبدع ، ملبياً بذلك شهوات نفسه ومعبرا عن واقعه الذى يعيش فيه ، وقد سبق التفصيل عن الحياة الاجتماعية في هذا العصر ،وما انتشر في المجتمع من مجون ،فقد كثرت القيان والجوارى ، وشاع الغناء وكثرت مجالس الطرب التي تتعانق فيها الكؤوس ، ويتبادل الجالسون فيها الصبابة والهوى ، فليس غريباً أن يشيع الغزل الماجن في مجتمع هذه عاداته وصفاته ، وليس غريبا أن يطالب الشعراء اللذة الجسدية وأن يثيروا الغرائز ،فانصرفوا يتحدثون بكل جرأة لا يردعهم حياء أو ضمير ، فثارت الغرائز ، وتفتحت مغالق الميول والنزوات. (١)

واختفى الغزل العذرى العفيف أو كاد ،إذا استثنينا العباس بن الأحنف من شعراء الغزل في هذا العصر ، أما بقية شعراء الغزل فقد تبذلوا في وصف المرأة ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، لا يردعهم ضمير ، ولا ينهاهم خلق أو دين ، ونجد أمثلة صادقة لذلك عند بشار وأبي نواس وغيرهما .

وشاع في هذا العصر نوع من الغزل لم يكن معروفا ، وهو الغزل الشاذ بالمذكر والذى يعطي صورة واضحة للسقوط والانحراف الذى وصلت إليه الحياة الاجتماعية في هذا العصر .

وكان حماد عجرد ووالبة بن الحباب أول من نظم في الغزل بالمذكر ، وتلاهما أبو نواس والحسين بن الضحاك ومطيع بن إياس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، ممن كانوا يجتمعون على موائد الشراب وبين أيديهم القيان والغلمان ، وهذه الظاهرة الشاذة في الغزل كانت على نطاق ضيق .

---

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ١٤٨ .

ونجد عند شعراء الغزل المكشوف كثيراً من قصائد الغزل العفيف ، الذى تبدو عليه سمات الوقار والطهارة ، يقول بشار :

أبيت أرمد ما لم أكتحل بكم ... وفي اكتحالي بكم شاف من الرمد
رقت لكم كبدى حتى لو انكم ... تهوون ألا أريد العيش لم أرد
كأن قلبي إذا ذكراكم عرضت ... من سحر هاروت أو ما روت في عقد (١)

والوصف غرض من أوسع أغراض الشعر يعبر فيه الشاعر عن مشاهداته ، ويصور فيه ما حوله من مظاهر ، وتبدو براعة الشاعر في دقة الوصف وإحكامه . وفي الوصف يتحدث الشاعر عن بيئته ومجتمعه ، ويصف المناظر التي يراها في حياته اليومية ، ولذلك نجد الشاعر الجاهلي والإسلامي يصفان الهاجرة والفلاة والمطر والقوس ، ويطيلان وصف الخيل والناقة والحية وغير ذلك من المناظر التي ألفا مشاهدتها .
واذا كان الشاعر الجاهلي والأموى قد وصف مشاهد الصحراء فان الشاعر العباسي متحضر مترف ، يصف القصور والحدائق ، ويفاضل بين الورود والأزهار ، ويعبر عن الحضارة التي عاشها .

ومظاهر الحياة على اختلافها هي التي تنمي الإحساس بالجمال ، وتقوى ملكة التصوير لدى الشاعر ، وقد صور الشعراء ما وقعت عليه أعينهم من مظاهر الحضارة في رقة وسلاسة ، وتميز الوصف في العصر العباسي بالدقة والتفصيل والتجديد في التشبيه والاستعارة والتطور الذى حدث في الوصف هو تحول الشعراء إلى وصف مظاهر الحضارة وهجرهم لوصف المشاهد التي وصفها القدماء ، فنجدهم يصفون الرياض الزهرة والأمطار والسحب والحيوان والطير والقصور والبساتين وغير ذلك مما جادت به الحضارة العباسية .
وقد أجاد في الوصف كثير من شعراء العصر العباسي وفي طليعتهم البحترى وابن المعتز وشعر الطرد والصيد باب من أبواب الوصف أجاد فيه الشعراء ، ونبغ فيه أبو نواس ، فوصف كلاب الصيد وآلاته ورحلاته التي كان يقوم بها ، وتحدث عن لذاته ولهوه في أيام صيده وقد تبعه ابن المعتز في شعر الطرد والصيد فيما بعد .

ولم يكتف الشاعر العباسي بطرق الأغراض الشعرية القديمة وتجديدها ، بل اخترع أغراضا جديدة أملته عليها ظروف حياته ومظاهرها ، فقد جدّت في العصر العباسي عادات وتقاليد ، ودخلت ثقافات جديدة ، وامتزجت عناصر مختلفة ، وتحول العربي من البداوة إلى الحضارة ، ومن شظف العيش إلى النعيم والهدوء والراحة ، وتلك أسباب كافية

---

(١) الديوان : ٢/ ٣١٥ .

بأن تجعل الشاعر العباسي يجدد ويبدع ، فما هي الأغراض الجديدة في شعر العباسيين؟ كان الغزل بالمذكر والهجاء بالزندقة تطوراً حدث في الغزل والهجاء العباسيَّيْن ، ويحق لنا هنا أن نضيفها إلى الاغراض الجديدة التي لم تكن معروفة عند الشعراء قبل العصر العباسي .

وكان رقي الحياة العقلية في العصر العباسي سبباً في ظهور غرض جديد هو الشعر التعليمي ، وأصبح الشعراء ينظمون القصص والمعارف والعلوم والسير والاخبار ، وكان أبان بن عبد الحميد أول من عمل على إشاعة هذا الفن الشعرى الجديد ، فقد نظم في هذا الموضوع تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيرة ، ومنها نظمه لقصص كتاب " كليلة ودمنه " كما نظم أبو العتاهية أرجوزة تسمى " ذات الأمثال " ، وتبلغ أربعة آلاف بيت ، وسار كثير من الشعراء في هذا الطريق ، ونظمت أشعار في الفقه والمصطلح والتاريخ وغيرها ، ومع أن النظم في الشعر التعليمي لا يُعتبر شعراً في الحقيقة الا أنه فن جديد اهتدى إليه الشاعر في عصر الحضارة والتقدم .

ونظمت في العصر العباسي أشعار في النوادر والفكاهات ، وكانت تعج بها مجالس اللهو والسمر ، يقول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يقال له رباح :

لقد كانت مجالسنا فساحاً ... فضيقها بلحيته رباحُ
مبعثرة الأسافل والأعالي ... لها في كل زاوية جناحُ

ومن أهم الاغراض الشعرية التي جدّت في هذا العصر الزهد ذلك الفن الجديد الذى تردد على ألسنة الشعراء ، وصور الحياة الدنيا على أنها دار ممر ، لا تستحق ما نقوم به من أجلها ، فهي فانية زائلة ، وغداً إلى دار الخلود .

ولما كان الترف والثراء وضعف الوازع الديني واختلاط العرب بغيرهم دافعاً إلى شعر المجون والزندقة والغزل بالمذكر ، فإنه قد يكون سببا في نشأة الزهد ، والحياة العباسية كانت تتمتع بنصيب كبير من الجدّ والتدين والمحافظة ، وإن كنا قد صورنا ألوانا من المجون والانحراف فإن هذا مقتصر على طبقة خاصة من الناس هي طبقة الحكام ومن حولهم ، أما بقية الأمة فهي محافظة متدينة في الغالب ، وعندما انتشر الترف ، وعم الفساد ، وكثر الانحراف تحركت عواطف كثير من الشعراء لتحذر المنحرفين المنغمسين في ملذات الدنيا .

وظهور تيار الزهد يعتبر بمثابة رد فعل لحياة الترف والمجون ، يقول محمد خفاجي :(١) " الزهد فن جديد نشأ في الشعر العباسي بتأثير كثرة الترف " ، ويقول محمد مصطفى هداره (٢) : " إن وجود تيار الزهد المضاد لتيار المجون منطق طبيعي لتطور الأشياء " .

---

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ٢٠٢ . (٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى : ٢٩٠ .

والحياة العباسية لم تكن لهواً كلها عبثا كلها ، ولم يكن الأدب العباسي منحصراً في المجون والزندقة والغزل المكشوف ، بل كانت حياة جادة متمسكة بدينها ، وكان هناك أدب تغنى بالفضيلة ، وحث على الأخلاق ، ونعى على المنحرفين ضلالهم ، وعلى طلاب الدنيا خسرانهم ، وتفصيل هذه المعاني والاستشهاد بنماذج شعرية تمثلها في غير هذا المقام ، وذلك عند الحديث عن الأغراض الاسلامية في الشعر العباسي ومنها الزهد .

وخلاصة القول أن الشاعر العباسي قد أبدع في الأغراض الشعرية القديمة ، ونسج عليها حللا زاهية مما شاهده وتأثر به في عصره من حضارة وعمران ، كما تفتق ذهن الشاعر عن أغراض جديدة لم تكن معروفة في الشعر الجاهلي أو الأموي ، وسواء كانت هذه الأغراض شراً على المجتمع أم دعوة الى الصلاح والتقوى فإنها في الحالين تصوير لواقع الحياة ، وتعبير عن مشاعر وأحاسيس وجدت في ذهن شعراء العصر العباسي .

وتجدر الاشارة الى أن التطور في الشعر شمل أيضا الأوزان والقوافي ، ومال الشعراء إلى الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، لتلائم الغناء الذى انتشر في هذا العصر على نطاق واسع ، ولتوافق حياة النعومة والترف .

وكما خرج الشعراء العباسيون عن الأوزان المعروفة تحرروا من القافية وقيودها ، ومن هذا التحرر الشعر المسمّط والمزدوج والمخمّس ، والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، وآخرين من قافية أخرى ، وهكذا ، وكثر هذا النوع في الشعر التعليمي عند أبان /بن عبد الحميد وأبي العتاهية .

ومع كل هذا التجديد في الوزن والقافية فإن الشعر الجزل الرصين هو الذى يبقى ويحفظ أما تلك الأوزان الخفيفة والقوافي المسمطة فسرعان ما تزول بزوال ساعتها التي أنشدت فيها ، ولكن هذا التجديد كان ضروريا لملاءمة واقع الحياة .

مفهوم الشعر الاسلامي

منذ أن خلق الله الارض ومن عليها والحياة صراع بين الحق والباطل ، بين الفضيلة والرذيلة ، وقد أنزل الله الاديان السماوية لتنظم علاقات البشر ، وتنشر السعادة والاطمئنان في أنحاء المعمورة ، وتوثق الصلة بين العبد وربه .

ومع احتدام هذا الصراع الهائل استعمل كل طرف جميع الوسائل لإضعاف الطرف الآخر وتعددت هذه الوسائل وكان منها المادى ومنها المعنوى .

ومع تطور العقل البشرى نشأت الفنون ، وصارت علاقاتها بالأديان وثيقة ، واستخدمت الفنون كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الفضيلة والتحذير من الرذيلة ، كما استعملت ضد الحق والفضيلة أحياناً ، وكانت الفنون القديمة مرتبطة بالأديان ارتباطاً وثيقاً ، لأن الدين يهدف إلى الخير ، ويدعو إلى العدل ، ويصرخ في وجه كل ظالم ، والفن يهدف إلى الإصلاح والإمتاع وفي ذلك يقول نجيب الكيلاني (١): " فالدين والفن كلاهما وسيلة نظيفة لغاية نبيلة وهكذا يلتقي الدين والفن " .

وبعد بزوغ فجر الاسلام احتدم الصراع بينه وبين أعدائه ، وكانت المعارك مادية ومعنوية ، وشاركت الفنون في هذا الصراع ومنها فن الشعر الذى ألفه العربي منذ أقدم عصوره ، وأحبه وطرب له وتأثر ببيانه الساحر ، واذا كان العربي في جاهليته قد جعل الشعر بمثابة سجل للفخر بنفسه ، والاعتزاز بشجاعته وكرمه وانتصاره على عدوه ، فانه قد حول هذا الفن بعد دخوله في الاسلام للفخر بهذا الدين الجديد ، والدفاع عنه بكل ما أوتي من قوة في البيان والاقناع ، وشرح مزايا الدين الجديد من عدل ومساواة وتوحيد لله سبحانه وتعالى ، وقد رأينا في عصر صدر الاسلام حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وبجير بن زهير يدافعون عن هذا الدين ، ويتغنون بفضائله ، ويشيدون بمن اتبع نبي الهدى صلى الله عليه وسلم .

واتسعت الفتوحات في العصر الأموى ، وسجل الشعراء تلك الفتوحات مباهين بها ، مفتخرين بهذا الدين العظيم ، معتزين بخلفائه وقادته المؤمنين ، ومع كثرة الفتوحات انتشر الرخاء والعمران ، وخلد الناس إلى الراحة ، حتى نراهم في العصر العباسي ينغمسون في الترف وتتجه طبقة منهم إلى الدنيا ومتاعها ، وتنصرف عن الآخرة والعمل لها ،

---

(١) الاسلامية والمذاهب الأدبية : ١٦ .

ويضعف الوازع الديني في بعض النفوس ، وتبدأ هجمات الأعداء على الدولة الاسلامية وفي هذه الظروف ينطلق الشعر الاسلامي ليؤدي دوره في المعركة ، فيدافع عن الاسلام ويبين محاسنه ، ويشيد بكفاح الدولة الاسلامية ووقوفها صامدة أمام هجمات العدو ، وذلك بقيادة خلفائها المسلمين ، وشجاعة قوادها المؤمنين الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن حوزة الإسلام .

ومع انتشار الترف والمجون نشأ تيار الزهد الذى يبين خسران المترفين المنصرفين الى متاع الدنيا الزائل والمستسلمين لغرورها ولهوها .

وعلى هذا فعلاقة الدين بالفن قديمة ، ودفاع الشعر عن الإسلام والفضيلة قديم ، يقوى ويضعف بضعف وقوة دوافعه وأسبابه ، فالعواطف الاسلامية الصادقة لا بد أن تعبر عن مشاعرها تجاه الأحداث .

والشعر الإسلامي كان ولا يزال فنا من الفنون التي وقفت تناصر الدين ، وتدافع عنه وتثير الحماسة في نفوس أبنائه كلما ادلهمت الخطوب ، وكلما أحاطت بالدين الأخطار .

ولكن ، ما هو مفهوم الشعر الاسلامي ؟ وهل هناك ضابط يحدد هذا النوع من هذا الشعر ؟ في الحقيقة لم يتحدث باحث عن تحديد الشعر الاسلامي ، ولو حاول باحثان الاتفاق على مفهوم هذا الشعر لحدث الاختلاف بينهما ، وسيكون هذا الاختلاف كبيراً جدا ، لأن الشعر عاطفة ومعنى ظاهر وباطن ، فظاهر المعنى قد يكون دليلا عليه ، وعاطفة الشاعر الخفية أحيانا قد تكون دليلا عليه ، ومع هذا فالمعاني الاسلامية العامة قد يتفق عليها كثير من الدارسين إذا أحلنا صدق العاطفة أو كذبها ، إذ لا يهمنا أن يكون الشاعر الإسلامي قد طبق ما يدعو اليه على نفسه وعمل به ، لأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون .

هل نستطيع أن نقول إن كل ما قاله شاعر مسلم يعتبر شعراً إسلاميا ؟

الجواب : لا ، فهناك أغراض شعرية لا تدخل في مفهوم الشعر الاسلامي ، وهناك معان تحدث عنها الشعراء لا تعتبر معان إسلامية ، وإن كان الشاعر في الحالتين مسلما فالغزل — وإن كان عفيفا — قد لا يدخل في مفهومنا لهذا الشعر ، والمديح الذى لا تبدو عليه سمات الإسلام لا يدخل في مفهوم الشعر الاسلامي أيضا .

وتحديد مفهوم الشعر الاسلامي تحديداً علمياً دقيقاً غيرُ ممكن ، لأن طبيعة الشعر تأبى ذلك ، ولأن نظرة الأدباء مختلفة جدا ، ولو عرضنا بيتاً من الأبيات على عشرة من الأدباء لوجدنا اختلافاً كبيراً بينهم ، فبعضهم يعده إسلامياً ، والآخر يخرجه من دائرة الشعر الإسلامي ، ولكل منهما وجهة نظره .

إذاً لا بد أن ننطلق في تحديدنا لمفهوم الشعر الاسلامي من مبادئ عامة قلّ أن يختلف عليها أحد ، وإن وقع الاختلاف كان بسيطا ، بحيث لا ننظر إلى نوع الغرض الشعرى ، ولا نلقي اهتماما كبيرا على عاطفة الشاعر ، وإنما ننظر إلى ما قيل ، لا إلى من قال ، ولا إلى تطبيقه لما قاله ، فقد يكون المديح إسلامياً لأنه قيل في خليفة مسلم ، وقد يخرج المديح نفسه من دائرة الإسلام ، والهجاء قد يكون غرضا إسلاميا عندما يرمى المهجو بالانحراف عن تعاليم الاسلام ، ويكون الشاعر صادقا فيما قال ، كما أن الهجاء نفسه يخرج عن دائرة الشعر الإسلامي عندما يصل الشاعر إلى حد الاقذاع أو سلب المهجو عراقة النسب أو جمال الخلقة وما إلى ذلك من الفضائل التي لا يعدها الاسلام فخراً للإنسان .

وخلاصة القول ، أن الشعر الإسلامي هو كل شعر اتضحت فيه العاطفة الدينية الصادقة ، ووسمته المعاني القرآنية ، وظهر عليه تصور الكون والحياة والاشخاص من خلال الاسلام ومثله العليا .

والدعوة إلى أى مذهب ، والترغيب فيه والترهيب من الابتعاد عنه لا تكون بالدعوة إلى التمسك به مباشرة ، ولكن تكون هذه الدعوة بطرق أخرى غير مباشرة ، فتصوير الآلام التي كابدها أتباع هذا المذهب ووصف البطولات التي خاضها معتنقوه وعرض الخلال الكريمة والشيم النبيلة التي تحلى بها رجالاته واثارة الأحزان على من ماتوا في سبيله ، وهجاء أعدائه الذين تصدوا لدعوته ، كل ذلك دعوة غير مباشرة إلى هذا المذهب ، وأسلوب لطيف بارع ، وكله أيضا يعتبر إسلاميا إذا كان المذهب الذى يدعو إليه الشاعر هو الإسلام .

ومرة أخرى لا يهمنا في تحديد مفهوم الشعر الاسلامي النظر إلى من قال ، بل يهمنا النظر إلى ما قيل ، والشعراء الذين سندرس شعرهم الإسلامي وأغراضهم الاسلامية — لم يكونوا جميعا من الملتزمين بالإسلام سلوكاً وتطبيقاً على الدوام — وإنما كانت تمر بهم لحظات يرجعون فيها إلى أنفسهم ، وتشرق معاني الإيمان في قلوبهم ، فيتردد ذلك في شعرهم بمعان إسلامية رائعة .

وستتضح في ثنايا هذا البحث الاغراض الإسلامية والمعاني الإسلامية التي ردّدها شعراء العصر العباسي الأول ، كما ستجرى محاولة لتحديد الشعر الإسلامي في كل غرض من الاغراض ، وسيكون الحديث مفصلاً عن المعاني الاسلامية من حيث دوافعها وصدق العاطفة فيها ، وأثرها على السامع ، ولا بد من تأييد ذلك كله بنماذج من هذه

المعاني التي تعطينا فكرة واضحة عن الشعر الاسلامي الذى حددنا مفهومه بوضوح العاطفة الاسلامية فيه ، وظهور أثر القرآن على معانيه ، وتصور الكون والحياة والأشخاص من خلال الإسلام ومثله العليا ، وبعبارة أدق : الشعر الإسلامي المُلْتَزِم .

عدم دراسة الشعر الإسلامي

سبقت الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى عدم العناية الكافية بدراسة الشعر العباسي واتجاهاته المختلفة ، وأن ما صدر من دراسات أدبية للشعر العباسي إنما كان بمثابة دراسات متشتتة ينقصها الشمول ويعوزها الاستقصاء .

وقد حظيت أغراض الشعر العربي بدراسات وافية مستفيضة في عصرنا الحاضر ، وتناول الدارسون في دراساتهم أكثر هذه الأغراض من مديح وهجاء وغزل وخمريات ونقائض ، وبلغت هذه الدراسات حداً من التنوع والتخصص ، جعل أساتذة كليات الآداب في العالم العربي يعانون صعوبة في بعض الأحيان عند اختيار موضوع جديد لطالب من طلاب " الماجستير " أو " الدكتوراه " فلا يكاد يقع اختيار الاستاذ على موضوع من الموضوعات حتى يرى أن باحثاً أو أكثر قد تناولوه ، ويجد أن كتابا أو أكثر قد صدر فيه .

لكن الأدب الإسلامي بوجه عام والشعر الإسلامي بوجه خاص لم يلق العناية التي لقيتها أغراض الشعر الأخرى ، ولم يلتفت إليه إلا النزر من الدارسين ، وكانت نظراتهم عابرة لا تتكافأ مع مكانة هذا الشعر في ديوان الشعر العربي ، ولا تنهض إلى مستوى منزلته في حياة المسلمين ، يقول نجيب الكيلاني : " إن الفن الاسلامي عامة ، والأدب الاسلامي خاصة وتعريفهما في ظل العقيدة الدينية ، ودراستهما على ضوئها لم يحظ بما هو أهل له من تمحيص ودراسة ". (١)

والشعر الإسلامي قد أدى رسالته الخيرة خلال أربعة عشر قرنا في تصوير مشاعر القلوب المؤمنة ، وإرواء عواطف النفوس المتدينة ، وإلهاب حماس الجماهير المسلمة ، وحشد طاقات الأمة الاسلامية للوقوف في وجه الغزاة من صليبيين وتتار ، وتعبئتها لدحر أعداء الاسلام من زنادقة وملحدين .

ويرجع إهمال الأدب الاسلامي وعدم العناية بدراسة اتجاهاته الإسلامية إلى طائفة من الأسباب وأهمها :

---

(١) الاسلامية والمذاهب الأدبية : ٥ .

١— ما أشاعه أوائل المؤرخين لأدبنا العربي — وأغلبهم من المستشرقين وأتباعهم — من أن أثر الإسلام في الشعر كان ضعيفا باهتا ، وأن الإسلام أضعف الشعر وأخمله وحط من شأنه ، فلم يكن للاسلام ذلك الأثر البعيد في الشعر مما يوجب علينا عدم العناية بالشعر الاسلامي ، وأنه لا يستحق الدراسة والتنقيب .

٢— ومن هذه الأسباب أن مصادر الأدب العربي وموسوعاته الكبرى كالأغاني والعقد الفريد والجمهرة ودواوين الحماسة والمفضليات والأصمعيات وغيرها من مجموعات الشعر العربي ومختاراته قد انصرفت إلى العناية بأغراض الشعر التقليدية وجمعها واختيارها ، فلم تكن هذه الموسوعات مصادر للشعر الإسلامي مع أنها قد تضم شعراً إسلاميا ولكنه قليل من كثير وغيض من فيض .

٣— وثالث الأسباب أن كثيراً من الشعر الاسلامي لم يقله شعراء محترفون مشهورون وإنما صدر عن شعراء مقلين قالوه تعبيراً عن خلجات نفوسهم ، وتصويراً لمشاعرهم المؤمنة ، ولم يقولوا مثله غيره فنسيهم مؤرخو الأدب ورواته ، ولم يذكروا مع الشعراء التقليديين .

٤— ويضاف إلى هذه الأسباب الثلاثة عدم جمع الشعر الإسلامي وترتيبه ، فقد بقي مبعثراً في صفحات الكتب المتفرقة ، ولم يحظ بجمع أو ترتيب ، ولم يجد من التحقيق والتنقيب العناية الكافية ، بل ظل مختلطا بأغراض أخرى من أغراض الشعر في ثنايا الكتب ، ولذلك لم نجد ديوانا أو دواوين تضم الشعر الإسلامي الملتزم .

ولو أتيح لهذا الشعر أن يجمع ويحقق كما جمع غيره ، وأن يوضع بين أيدي الدارسين لوجدوا فيه من عناصر الأصالة وصدق العواطف وحيوية المشاعر ما يغريهم بدراسته ، ويدفعهم إلى تبيانه وتوضيحه للأجيال .

وتجدر الإشارة إلى أن كلية اللغة العربية بالرياض قد كلفت مجموعة من طلابها بجمع الأدب الإسلامي وتحقيقه منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، وطبعت ثلاثة أجزاء من هذه الموسوعة الإسلامية .

وواجب الباحثين والدارسين عظيم نحو الأدب الإسلامي الذي ظل في طي النسيان مدة طويلة ، إذ يجب أن يعطى من العناية والدراسة ما هو جدير به . وسيكون هذا

الأدب — بعد دراسته وتوضيحه — مورداً عذباً ينهل منه أبناء الأمة الإسلامية فيثير حماسهم ، ويقوى عزائمهم ، ويغذى عقولهم بما فيه من مثل عليا وأخلاق حميدة وتضحيات فذة ، صورها الأدباء في أروع صورة وأجملها .

ولعل شباب الإسلام يجد في أدبه الإسلامي ما يصرفه عن ذلك الأدب الفاجر المكشوف ، والذى يثير الغرائز ، ويهدم المبادئ ، ويسمم الأفكار ويحطم صروح الأخلاق الفاضلة .

أغراض الشعر الإسلامي في هذا العصر

تمهيـــد :

انبثق شعاع الإسلام من الجزيرة العربية ، وشع نوره على بقاع المعمورة لينير للبشرية طريقها المظلم ، ويرتفع بعقولها عن عبادة الماديات ، ويسمو بأخلاقها عن العادات البالية والتقاليد العقيمة ، وقد وقفت الفنون الإسلامية بمختلف أنواعها تؤيد هذا الدين ، وتمده بقوة معنوية هائلة ، وكان الشعر من أبرز هذه الفنون التي ساهمت في خدمة الإسلام لما له من أثر كبير في النفوس ونفوس العرب خاصة ، فهم الذين يبهرهم البيان ، ويؤثر فيهم سحر البلاغة والفصاحة .

وقد دافع شعراء صدر الإسلام والدولة الأموية عن الإسلام دفاعا مجيداً ، ووقف بعضهم شعره في سبيل الدعوة إلى الدين الحنيف ، وتسجيل الأحداث والحروب التي وقعت بين أمة الاسلام وبين أعدائها من مشركين ويهود ومرتدين .

وفي العصر العباسي بلغت الدولة الإسلامية قمة مجدها ، وتطورت الحياة الاجتماعية والعقلية تطوراً كبيراً ، ونقلت العلوم الأجنبية إلى العربية ، وامتزج الجنس العربي بغيره من الأجناس الأخرى ، ودخل المجتمع العباسي الحضارة من أوسع أبوابها ، وبلغ الثراء حداً لا يوصف ، وخاصة عند طبقة الحكام والوزراء ومن حولهم . فكان لهذه النقلة الاجتماعية والعقلية أثرها الكبير على الفنون في ذلك العصر ، وكان الشعر من أبرز الفنون التي صورت المجتمع العباسي ، ووصفت حياة أفراده ، وسجلت أهم عاداته وتقاليده وأحداثه .

ورأينا صورتين مختلفتين للمجتمع العباسي ، صورة المجون والزندقة وإدمان الخمر والانصراف إلى متاع الدنيا من أموال ونساء وخمور وقصور ، وعبر الشعراء عن هذه الصورة بكل دقائقها وتفاصيلها ، فوصفوا الخمر ومجالسها ، وأفحشوا في الغزل المكشوف وجاهروا بالزندقة والإلحاد ، وهتكوا الأعراض النقية في هجائهم ، وتعشقوا الغلمان ووصفوهم بصفات الإناث من الرقة والخفة والجمال ، وأعلنوا خروجهم على الدين والخلق والفضيلة دون حياء أو خجل ، وبدون رادع من ضمير أو خلق أو دين .

تلك صورة من صور المجتمع العباسي مثلتها طائفة أغلبها من الاغنياء وطبقة الحكام والوزراء ومن حولهم ، وهناك صورة أخرى تختلف كل الاختلاف عن هذه الصورة ألا وهي صورة التقى والورع ، صورة العفة والخلق الكريم ،صورة العبّاد والزهاد والمحدثين والوعاظ ورجال الدين والصلاح ، بل صورة عامة الشعب وسواد الناس الذين لم يعرفوا المجون والزندقة ، ولم يكن لتلك الحياة المترفة أثر على عقيدتهم وأخلاقهم .

وكانت مساجد بغداد العامرة بالمحدثين والوعاظ والممتلئة بحلقات الدرس والتذكير ، والمجلجلة في خشوع بقراءة القرآن الكريم ، كانت صورة هذه المساجد تقابل مجالس اللهو والخمر ، وحانات الفساد والرقص والغناء ، ونوادى المسامرة والمجون . وكما وصف كثير من الشعراء حياة الترف والمجون ، صور قسم آخر حياة التقوى والزهد ، وتصدى لأعداء الدين من مجان وزنادقة ومنحرفين ، وارتفعت أصوات عدد من الشعراء تتغنى بانتصارات الدولة الإسلامية على أعدائها من ترك وبيزنطيين ، وتمجد خلفاء المسلمين الذين يذودون عن حوزة الإسلام ، وتصور بطولة القواد الذين قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، وتثير الحماس في نفوس الشباب المؤمن لكي يدافع عن عقيدته وأمته .

وانصرف بعض الشعراء إلى وعظ الناس وتذكيرهم بالموت والجزاء والحساب ودعوتهم إلى الزهد في نعيم الدنيا والانصراف إلى التزود بالصالحات ،وهجا عدد آخر أولئك الزنادقة الذين تجردوا من الأخلاق الإسلامية .
وبذلك وجدت في الشعر العباسي أغراض إسلامية ، وقفت تواجه المجون والشذوذ وتعطي صورة للمثل العليا والأخلاق الفاضلة ، وتعددت هذه الأغراض ، فكان منها الجديد كالزهد ومنها القديم كالمديح والهجاء والرثاء .

وبعد هذا التمهيد سيجرى تفصيل الحديث عن الأغراض الإسلامية ، وأهم معانيها وأبرز دوافعها مع الاستشهاد بنماذج حية تصور هذا الاتجاه الإسلامي في نفوس الشعراء ولا بد من مناقشة آراء الأدباء حول هذه الأغراض وقيمتها المعنوية والفنية ، ومكانتها بين أغراض الشعر الأخرى .
والأغراض الإسلامية في الشعر العباسي هي : الإلهيات والمديح والهجاء والدفاع عن الإسلام والرثاء والزهد والمواعظ .

الإلـهيـــــات

فطر الإنسان على الاتجاه إلى شيء مقدس يعظمه ويجله ، ويدعوه عند النوائب والخطوب ، ويشكره على فضله ونعمه ، فنحن نرى الأمم المختلفة تتجه إلى مخلوقات تقدسها اعتقادا منها بنفعها أو ضررها ، واتجه القدماء إلى عبادة الأصنام والآلهة من أشجار وأحجار وغيرها ، وعظموا الشمس أو القمر أو النار لاعتقادهم بعظمة هذه المخلوقات.

والله سبحانه خلق الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أياديه ونعمه ، وأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته في خلقه ، وفي القرآن الكريم آيات في الاعتراف بفضل الله ووحدانيته ، والتسليم بقوته وجبروته ، والإيمان بجزيل نعمه على المخلوقات جميعا من حيوان ونبات وجماد .

وقد توجه الشعراء قديماً إلى الله وناجوه بأبيات خاشعة ، وتضرعوا إليه طالبين منه المغفرة والرضوان ومعترفين بعظمة مخلوقاته ، ففي الكون الكبير ونظامه ودقة إحكامه اكبر دليل على عظمة الله ، فهو الواحد الأحد المدبر لجميع الأمور ، وهو المستحق للعبادة والخضوع دون غيره .

وقد كانت المناجاة الإلهية في عصر صدر الإسلام والدولة الأموية تميل إلى البساطة والوضوح ، وإذا تعمقت أخذت شيئا من معاني القرآن في مناجاتها ، فهذا حسان بن ثابت يقول ببساطة ووضوح :

وأنت إلـه العرش ربي وخالقي ... بذلك ما عمّرت في الناس أشهدُ
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلـهاً ، أنت أعلى وأمجدُ
لك الخلق والنعماء والأمر كلـه ... فإياك نستهدي وإياك نعبدُ (١)

وفي العصر العباسي تمتزج الثقافات ، وتترجم الكتب في مختلف العلوم وعن لغات مختلفة من فارسية وهندية ويونانية ، وتنتشر حركة التدوين والتأليف ، وتكثر المحاورات والمناظرات العقلية بين أهل الملل والنحل ، وعلماء الكلام والاعتزال ، فكان لهذا كله أثر كبير على المناجاة الإلهية في هذا العصر ، يضاف إلى ذلك أثر القرآن الكريم والسنة النبوية على جميع الاتجاهات الإسلامية في الشعر ، فتحولت بذلك المناجاة من البساطة إلى العمق ، وتعمق الشعراء في مناجاتهم لله ، وفصّلوا آياته الدالة على عظمته ، ونظروا في الكون وأسراره ،

---

(١) ديوان حسان : ٧٩ .

فوجدوا فيه دليلا على عظمة المبدع وقوة الخالق ، وزادهم ذلك إيمانا بوحدانية الله ووجوب عبادته .

وراح الشعراء يناجون خالقهم ، ويمدحون الذات الإلهية ، ويتوجهون إليها بالشكر والثناء ، ويقرنون ذلك كله بما أبدعته صنعة الخالق في هذا الكون من معجزات تجعل الانسان يقف حائراً أمام عظمتها ، مقراً بالخضوع لخالقها المستحق للعبادة الذى لا ملجأ منه ، ولا مهرب إلا إليه .

والشعراء أكثر الناس تأثراً بما يشاهدون ، وأبلغ الناس تعبيراً عن المواطف القوية والمشاعر الكامنة في النفوس ، وهم أهل المشاعر الرقيقة والاحاسيس المرهفة التي تنفعل بما يمر بها ، وتعبر عن هذا الانفعال ببيان بليغ ، وأسلوب قوي مؤثر .

وإذا تأملنا الشعر في العصر العباسي الأول وجدنا أن دواوين الشعراء لا تخلو من المناجاة الإلهية والالتجاء إلى الله ، حتى عند أولئك الشعراء الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم ، واستسلموا لشهوات النفوس ، نجد في دواوين هؤلاء أبياتا في المناجاة الإلهية رائعة ، تفيض بالندم والحسرة ، وتأمل في مغفرة الله ورضوانه .

وقد انصرف الشعراء إلى الاغراض التقليدية من مدح وهجاء ورثاء وغيره ، واضطرتهم إلى ذلك ظروف معيشتهم وواقع مجتمعهم ، ولكنهم لا يلبثون أن يرجعوا إلى الله ، ويعلنوا التوبة والندم على ما فات ، وتتخلل دواوينهم أبيات رائعة في مناجاة الله والرجوع إليه .

وتكثر المناجاة الإلهية في أشعار الزهاد الذين قصروا شعرهم على الزهد والموعظة كأبي العتاهية ومحمود الوراق وعبدالله بن المبارك ومحمد بن كناسه .

يقول أبو العتاهية (١):

فالحمد لله الذى هو دائم ... أبداً وليس لما سواه دوامُ
والحمد لله الذى لجلاله ... ولحلمه تتصاغر الأحلامُ
والحمد لله الذى هو لم يزل ... لا تستقل بعلمه الأوهامُ (٢)

---

(١) هو اسماعيل بن محمد بن القاسم ، العنزى بالولاء ، يكنى بأبي إسحاق ، وأبو العتاهية لقبه ، رائد الزهد في الشعر العربي ، وتغلب على شعره الروح الاسلامية ، ولد في عين التمر قرب الكوفة سنة ١٣٠هـ ، ونشأ في الكوفة ، ثم سكن بغداد واتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم ، توفي ببغداد سنة ٢١١ هـ . سيأتي الكلام عن زهده عند التحدث عن الزهد ، وانظر في ترجمته واشعاره :
الاغاني : ١/٤ ، والشعر والشعراء : ٢/٧٩١ ، ووفيات الاعيان : ١/١٩٨ ، وتاريخ بغداد : ٦/٢٥٠ ، ومعاهد التنصيص : ٢/٢٨٥ ، والاعلام : ١/٣١٩ .
أما ديوانه فقد طبعه الأب لويس شيخو سنة ١٨٨٦م وسماه " الانوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية " ، وفيه بعض التحريف ، وأعاد تحقيقه الدكتور شكرى فيصل ، وعلى هذا التحقيق سيكون اعتمادى .

(٢) الديوان : ٣٥٢ .

فهو يحمد الله ويشكره ، لانه الدائم وغيره فان ، ويكرر هذا الحمد في أبياته الثلاثة معترفا بعظمة حلم الله وسعة علمه الذى يتعدى كل علم .

ويقف أبو العتاهية مرة أخرى متضرعا أمام الله ، يطلب المغفرة والرحمة ، ويعترف بارتكابه للمعاصي ، نادما على ما فات وآملا عفو الله لانه أرحم الراحمين :

إلهي لا تعذبني فاني	مقر بالذى قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي	وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا	وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها	عضضت أناملي وقرعت سنّي (١)

وتتردد في شعر أبي العتاهية تلك المناجاة الإلهية من دعاء وحمد وشكر ، ويقرنها أبو العتاهية غالبا بالتهوين من أمر الدنيا ، وأنها إلى زوال ، يقول :

سبحان من يعطي بغير حساب	ملك الملوك ووارث الأرباب
ومدبر الدنيا وجاعل ليلها	سكنا ومنزل غيب كل سحاب
يا نفس هلا تعلمين فاننا	في دار معتمل لدار ثواب (٢)

وأبو نواس (٣) الماجن شاعر الخمريات والغزل بالمذكر تتناثر في ديوانه أبيات إسلامية رائعة

---

(١) الديوان : ٣٧٥ . (٢) الديوان : ٤٢ .

(٣) هو الحسن بن هانيء ، الحكمي بالولاء ، أبو نواس شاعر العراق في عصره . ولد في "الأهواز" من بلاد خوزستان سنة ١٣٩ هـ . ونشأ في البصرة ، ثم رحل الى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء العباسيين ، ثم خرج الى دمشق ، ومنها الى مصر ومدح أميرها الخصيب ، ثم عاد الى بغداد الى أن توفي بها سنة ١٩٨هـ ، وكان ملما باللغة فصيحا ، قال الشعر في اكثر اغراضه ، وأجود شعره خمرياته . نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، ويبدو أن ما قاله من الزهد كان بعد تنسكه كما ورد في الاغاني : ٢١١٨ ، وانظر في ترجمته وأشعاره وأخباره : الشعر والشعراء : ٧٧٠ ، وابن المعتز : ١٩٣ ، والاغاني (ساسى) : ٢/١٨ ، وتاريخ بغداد : ٤٣٦/٧ ، ووفيات الاعيان : ٣٧٣/١ ، والموشح للمرزباني : ٢٦٣ ، ومعاهد التنصيص : ٨٣/١ . وانظر أبا نواس لكل من : عبدالرحمن صدقي ، وعباس محمود العقاد ، وعباس مصطفى ، وعمر فروخ ، والنواسي لزكي المحاسني ، وأخبار أبي نواس لأبي هفان . حقق ديوانه وضبطه احمد عبدالمجيد الغزالي ، وقد له المشرف على تحقيقه عزيز أباظه ، طبع عدة طبعات أهمها طبع مطبعة مصر "شركة مساهمة مصرية" ١٩٥٣ م .

في الزهد والإلهيات قد تفوق في معانيها وإحكامها ما قاله أبو العتاهية — على كثرته — من أشعار الزهد ، ولعل أبا نواس كان يصحو من غفلته ، وتسمو روحه فترتفع الى خالقها معترفة بالذنب مؤملة الرحمة والغفران ، ومن المحتمل أنه قال هذه الأبيات في الزهد بعد توبته — ان صحت هذه التوبة — كما ورد في الأغاني (١) ، وسواء كان قد قالها في فترات صحوه ، أو قالها بعد توبته وتنسكه فهي قوية ومؤثرة ، تتغلغل في كلماتها معاني الندم والحسرة ، والاعتراف بكل صغيرة وكبيرة ، ويسيطر على أغلب هذه الأبيات اليأس من العفو والمغفرة ، ولنستمع اليه حين يقول :

أيا من ليس منه مجـــير ... بعفـوك من عذابك أســـتجيرُ
أنا العبد المقر بكل ذنب ... وأنت السيّد المولى الغفـــورُ
فإن عذبتني فبسوء فعلي ... وإن تغفر فأنت به جديـــرُ
أفر إليك منك .. وأين إلا ... إليك يفر منك المســـتجيرُ (٢)

فالاثم يصرخ في أعماق أبي نواس ، والذنوب الكبيرة تجعله يقف حائراً متسائلا بمن أستجير ؟ والى أين أفر ؟ لكن الأمل يراوده في عفو الله الواسع ورحمته التي وسعت كل شيء .

ومرة أخرى يخشع أبو نواس ، ويملؤه الأمل لأن عفو الله لا تحده حدود ، فهـــو أعظم من الذنوب مهما كثرت ، يقول :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثـــرة ... فلقد علمت بأن عفـوك أعظـــمُ
إن كان لا يرجوك إلا محســـن ... فبمن يلوذ ويستجير المجـــرمُ ؟
أدعوك رب كما أمرت تضرعـــا ... فاذا رددت يدى فمن ذا يرحـــمُ ؟
ما لي إليك وسيلة إلا الرجـــا ... وجميل عفـوك .. ثم أني مســـلمُ (٣)

ونختتم إلهيات أبي نواس بأبيات من مناجاة رائعة قالها عندما حج إلى بيت الله الحرام :

إلهنـــا ما أعـــدلكْ
مليك كل من ملـــكْ
لبيك قد لبيت لـــكْ
لبيك ان الحمد لـــكْ
والملك لا شريك لـــكْ
ما خاب عبد سألـــكْ
أنت له حيث ســـلكْ
لولاك يا رب هلـــكْ (٤)

---

(١) انظر الاغاني : ١٨/ ٢ . (٢) الديوان : ٦١٠ . (٣) الديوان : ٦١٨
(٤) الديوان : ٦٢٣ .

وهذا محمد الوراق [1] عاجز عن الشكر ، فنعم الله أكثر من شكرنا له مهما شكرناه يقول :

اذا كان شكري نعمة الله نعمة	عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمر [2]

ويناجي ذو النون المصري [3] ربه مناجاة فيها اعتراف بفضله ، وعرض رائع لقدرته ، فهو المهيمن الجبار المصرف لجميع الأمور :

الحمد لله حمداً لا نفاد له	حمداً يفوت مدى الاحصاء والعددِ
رب تعالى فلا شيء يحيط به	وهو المحيط بنا في كل مرتصدِ
يا رب إنك ذو عفو ومغفرة	فنجنا من عذاب الموقف النكدِ
واجعل إلى جنة الفردوس موئلنا	مع النبيين والأبرار في الخلدِ
سبحان ربك رب العز من ملك	من اهتدى بهدى رب العالمين هُدِي [4]

أما علي بن الجهم [5] — شاعر أهل السنة الملتزم — فهو يتوكل على الله ، ويتضرع إليه فاليه المشتكى لأن أبواب الملوك مغلقة وباب الله مفتوح ، وإلى الله يفزع الإنسان عند

---

(١) محمود بن حسن الوراق ، شاعر في العصر العباسي ، اكثر شعره في الزهد والمواعظ والحكم ، توفي في خلافة المعتصم سنة ٢٢٥ هـ . انظر في ترجمته وأشعاره : فوات الوفيات : ٢/٥٦٢ ، وتاريخ بغداد : ١٣/٨٧ ، وزهر الآداب : ١/٩٨ ، والاعلام : ٨/٤٢ .

(٢) زهر الآداب : ١/٩٨ .

(٣) هو ثوبان بن ابراهيم الاخميمي المصري ، أبو الفيض ، وذو النون لقبه ، وهو أحد العباد والزهاد المشهورين من أهل النوبة ببلاد مصر ، وكانت له فصاحة وحكمة ، توفي في الجيزة بمصر سنة ٢٤٥ هـ . انظر في ترجمته : وفيات الاعيان : ١/٢٨٠ ، وحلية الاولياء : ٩/٣٣١ ، والبداية والنهاية : ١٠/٣٣٧ والاعلام : ٢/٨٨ .

(٤) حلية الأولياء : ٩/٣٨٨ .

(٥) هو علي بن الجهم بن بدر ، أبو الحسن ، من بني سامه ، من لؤي بن غالب ، شاعر رقيق الشعر ، أديب من أهل بغداد ، كان معاصرا لأبي تمام ، وحظي بالمتوكل العباسي ثم غضب عليه المتوكل ، فنفاه الى خراسان ، فأقام مدة . وانتقل الى حلب ، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بني كلب ، فقاتلهم ، وجرح فمات من جراحه . انظر في ترجمته وأشعاره وأخباره :
الاغاني : ١٠/٢٠٣ ، ووفيات الاعيان : ١/٣٤٩ ، وتاريخ الطبري : ١١/٨٦ ، وسمط اللآلي : ٥٢٦ ، ومعجم الشعراء : ٢٨٦ ، وتاريخ بغداد : ١١/٣٦٧ ، والبستاني : ١٠/٤٣٦ ، والاعلام : ٤/٧٧ ، ومجلة المجمع العلمي : ٢٥/٢٨٣ .
وانظر أيضا علي بن الجهم حياته وشعره لعبد الرحمن الباشا .
جمع ديوانه وحققه وجمع تكملته خليل مردم بك وطبعه المجمع العلمي العربي بالمطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩م .

النوائب والخطوب ، يقول في ذلك حينما حبس :

توكلنا على رب السماء ... وسلمنا لأسباب القضاءِ
ووطّنا على غير الليالي ... نفوسا سامحت بعد الاباءِ
وأفنية الملوك محجبات ... وباب الله مبذول الفناءِ
فما أرجو سواه لكشف ضرى ... ولم أفزع إلى غير الدعاءِ
ولمْ لا أشتكي بثي وحزني ... إلى من لا يصم عن الدعاءِ(١)

وهكذا تبقى المناجاة الإلهية صلة وثيقة بين الإنسان وربه ، لأن الإنسان يخطيء ويرتكب الموبقات ، ولكنه سرعان ما يندم ، ويحس بضعفه أمام قدرة الله وبتفريطه في طاعة الله الذى وهبه جميع النعم ، وهيأ له من أسباب الحياة ما يوجب الشكر والطاعة ، ثم يسجل الشاعر هذه المعاني بأبيات تعبر عن مشاعره ، وتضع الأمل في عفو الله بين عينيه .

وخلاصة القول أن الإلهيات اتجاه ديني وغرض إسلامي من أغراض الشعر في هذا العصر ، نظم فيه أكثر الشعراء ، وكان العصر العباسي امتداداً لما قبله من العصور ولكن الحياة الاجتماعية فيه ، وما انتشر فيه من مجون وترف ، جعل كثيراً من الشعراء يحسون بثقل ذنوبهم ، وعظمة خالقهم ، عند ذلك توجهوا اليه ، وسلموا أمورهم له ، ونظموا قصائد فيها الابتهال والخشوع وفيها الاعتراف بعظمة مخلوقات الله ، القادر على كل شيء ، والمصرف لكل أمر من أمور السموات والأرض .
ونلاحظ في تلك النماذج التي أوردناها أمثلة للإلهيات صدق العاطفة لأن الشاعر لا يخاطب خليفة أو وزيراً يرجو عطاءهما العاجل ، وانما يخاطب رب العالمين وأكرم الأكرمين الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ونلاحظ أيضا سمة الخشوع والتذلل التي تغطي معظم هذه الأبيات ، ذلك لأن الموقف موقف الأمل والرجاء أمام أعظم العظماء وملك الملوك الله رب العالمين .

---

(١) الديوان : ٨١ .

المـــديح

المديـــح فن الثناء والاكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقـام السجل الشعرى لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي عديدة من أعمـــال الملوك وسياسة الوزراء وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأضاف إلى التاريـــــخ ـ صادقا أو كاذبا ـ ما لم يذكره التاريخ ، كل ذلك مع إبداع في الأسلوب وروعـــة في المعاني وجزالة في الألفاظ .

والمديح فن قديم عرفته الأمم جميعا ، وكثر في آدابها ، وقد عُرف المديح في العصر الجاهلي ، وترددت في أشعارهم عبارات الثناء إلى اليوم ، مع اختـــلاف في الأساليب والأشكال والمعاني .
والمديح يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً من أدبنا ، لانه يعني بوصف الرجـــال وامتداح مزاياهم والتحبب اليهم ، والتقرب إلى مقامهم بأحسن وأبرع صورة .

وأنواع المديح كثيرة ، فهناك مديح الخلفاء والملوك ، ومديح الوزراء والأمـــراء ، ومديح القواد والولاة ، ومديح العلماء والأدباء ، ومن المدح مديح الأوطان والبلـدان وغيرها . وبواعث المديح متعددة ، فقد تدفع الشاعر عاطفة الاعجاب الصادق والايمان العميق فيتحدث بصدق وأصالة ، وقد تدفع الشاعر إلى المديح الهدايا والأمـــوال أو السياسة ، أو التعصب للقبيلة ، أو الدفاع عن دين من الأديان .

ولو تتبعنا المديح في العصر العباسي الأول طال بنا الحديث وتشعب ، ولكـــن يهمنا من هذا الغرض الواسع المديح الإسلامي الذى يظهر عليه أثر الإسلام ، وتبـدو فيه الصفات الاسلامية الحميدة ، والأخلاق التي حث الإسلام على التحلي بها ، ونعني بذلك المديح الذى يصور الخليفة في تمسكه بأهداب الإسلام ، وحرصه على شـــئون الرعيـة وشجاعته في الدفاع عن حوزة الإسلام ، ويصور القائد بشجاعته المؤمنـــة وتضحيته بأعز ما يملك في سبيل الله ، ويصف جيوش الإسلام وهي تكبر وتهلل ، وتزحف بثبات لنشر العدل والسلام على بقاع المعمورة .

ونعني بالمديح الإسلامي ذلك المديح الذى يصور الايمان العميق ، **والعفة** والمروءة والصدق والأمانة ، والسماحة والشجاعة وغيرها من الصفات السامية التي تثير في نفوســـنا حب التمسك بالفضيلة وكراهية الاتصاف بالرذيلة .

وقد صور لنا المديح الإسلامي في جميع عصوره فترات تاريخنا المجيد ، الحافل بالايمان والبطولة والعلم والحضارة ، وصور زعماء الإسلام في بطولتهم وإيمانهم وكرمهم وعلو همتهم ، فكان المديح الإسلامي أوسع الاغراض الإسلامية في الشعر العربي ، وصار سجلاً لحوادث التاريخ وصفات الرجال .

وفي العصر العباسي الاول كان المديح امتداداً لما سبقه من العصور ، ولا ننكر حدوث التطور والتغيير في شكل المديح ومضمونه ، إلا أن صفات الكمال هي هي لم تتغير ، ومزايا الممدوح لم تتبدل وان اختلف الناس في عصر من العصور على صفة من الصفات هل تعتبر من الصفات التي يمدح بها الناس أم لا ؟ وهذا الاختلاف يزول عندما نقول ان طريقة الشعراء تختلف في عرض صفات الممدوح ، كما تختلف في أسلوب تصويرها لهذه الصفات وتقديم بعضها على بعض ، أو إهمال جانب منها والاهتمام بجانب آخر من تلك المزايا والخلال .

ويعتبر المديح غرضا رئيسياً من الاغراض التي اهتم بها الشعراء في العصر العباسي الاول ، بل إنّ المديح يشكل معظم دواوينهم ، وقد نظم فيه أعلام الشعراء كأبي تمام وبشار وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد وعلي بن الجهم وغيرهم ، ومدح الشعراء الخلفاء والوزراء والقادة والعلماء ، ومدحوا النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أشادوا بأهل بيته وبكوا قتلاهم .

فما هي المعاني الاسلامية التي أوردها الشعراء في مديحهم ؟ وما هي الاخلاق التي صوروها ؟ وما هي العواطف التي دفعتهم إلى المديح ؟

وأول أنواع المديح مديح الرسول صلى الله عليه وسلم — الذى ضرب أروع الامثلة في الشجاعة والصبر حتى استطاع تبليغ رسالة الاسلام على أتم الوجوه ، كما اتصف بصفات الكمال ، فكان بذلك قدوة للبشر أجمعين ، فلا ريب أن يحظى بتقدير الشعراء وثنائهم العاطر على سيرته ، وابرازهم لبطولته ، وسماحة أخلاقه وسمو رسالته التي حملها بكل صدق وأمانة .

وقد مدح الشعراء النبي — صلى الله عليه وسلم — منذ فجر الإسلام إلى اليوم ، وسيبقى المثل الاعلى والقدوة الحسنة في أخلاقه وصفاته ، وستظل رسالته الينبوع الصافي الذى ينهل منه البشر جميعا .

وقد كان حسان بن ثابت من أوائل الذين مدحوا النبي — صلى الله عليه وسلم — ودافعوا

عن رسالته ، ووصفوا مزاياها ، لأنها طريق الخير والنور والسلام .
واستمر الشعراء بعد حسان ينظمون القصائد ، ويبدون فيها الاعجاب والاحترام لهذا الرجل العظيم ، ويعددون صفات الرسول — صلى الله عليه وسلم — الخُلقية والخَلقية ، ومضوا يصورون معجزاته ، ويدعون إلى الاقتداء به والتخلق بأخلاقه ، ومزجوا ذلك بتصوير حال المسلمين في عصورهم المختلفة ، وما أصابهم من التفكك والضعف ، ويشكون ذلك إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — داعين الى لمّ الشمل والتمسك برسالة الاسلام ، ولم يخل ديوان شاعر مسلم من مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — مع اختلاف في الكم والكيف ، واختلاف في التدين أو عدمه .

ومن شعراء العصر العباسي الأول الذين مدحوا النبي صلى الله عليه وسلم ، أبو العتاهية الذي يسلم على قبره ، ويشيد باصطفاء الله له ، وأن الله هدى به البشرية ، وأنقذها من الضلال ، وكان (ص) مفتاح رحمة للعالمين ، ومع هذا فهو بشر ، يموت كما يموت الناس يقول أبو العتاهية :

سلام على قبر النبي محمد ... نبي الهدى والمصطفى والمؤيّدِ
نبي هدانا الله بعد ضلالة ... به ، لم نكن لولا هداه لنهتدي
فكان رسول الله مفتاح رحمة ... من الله أهداها لكل موحد
وكان رسول الله أفضل من مشي ... على الأرض إلا أنه لم يخلد (١)

أما دعبل الخزاعي (٢) — أحد شعراء الشيعة — فيدعو بالسقيا لقبر النبي — صلى الله عليه وسلم — ويصلي عليه صلاة لا تعداد لها ويقول :

سقى الله قبراً بالمدينة غيثه ... فقد حلّ فيه الأمن بالبركاتِ
نبي الهدى صلى عليه مليكه ... وبلغ عنا روحه التحفاتِ
وصلى عليه الله ما ذرّ شارق ... ولاحت نجوم الليل مبتدراتِ (٣)

---

(١) ديوان أبي العتاهية : ١١٦ .
(٢) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي ، شاعر هجاء ، شيعي لعلي وآل بيته أصله من الكوفة ولد سنة ١٤٨ هـ وأقام ببغداد ، ثم رحل إلى مصر وتوفي ببلدة تدعى " الطيب " (بين واسط وخوزستان) سنة ٢٣٥ هـ ، وله ديوان شعر مطبوع . انظر في ترجمته وأخباره : الاغاني (ساس) : ١٨ / ٢٩ ، ووفيات الأعيان : ٢ / ٣٤ ، وتاريخ بغداد : ٨ / ٣٨٢ ، والشعر والشعراء : ٢ / ٨٤٦ ، ومعاهد التنصيص : ٢ / ١٩٠ ، والبداية والنهاية : ١٠ / ٣٤٨ . جمع شعره عبد الكريم الاشتر بدمشق ، وعبد الصاحب الدجيلي في العراق ، ومحمد يوسف نجم ببيروت .
(٣) شعر دعبل الخزاعي لعبد الكريم الاشتر : ٢٢٩ .

ويمدح القاسم بن يوسف[1] النبي (ص) بأنه خير البرية ، وأنه رسول الله إلى العالمين جميعا ، وبرسالته هدم الظلم والضلال :

ألا إن خير بني آدم ... نبي الهدى والتقى والكرمْ
محمد المصطفى والرسو ... ل الى الناس من عرب وعجمْ
بأحمد أغلق باب الضلا ... ل وهدّم أركانه فانهدمْ[2]

واستمر المديح النبوي بعد العصر العباسي الأول ، وواصل الشعراء تمجيدهم لرسالة النبي (ص) وصبره على تبليغ الرسالة . وبردة البوصيري ذائعة مشهورة ، وقد عاش في القرن السابع الهجري ، وفي العصر الحديث نظم البارودي مديحا للنبي (ص) كما نظم احمد شوقي الهمزية النبوية ونهج البرده .

ونحس في المدائح النبوية صدق العاطفة عند الشعراء على وجه العموم ، إذ ليس هناك دوافع مادية وراء هذا المديح ، وانما كانت عواطف الشعراء تشعر بعظمة الرسول (ص) فتنطلق قرائحهم معبرة عن مشاعرهم المؤمنة ، التي ترى في النبي (ص) أعظم رجل عرفته البشرية ، وترى في رسالته الكمال والوفاء بحاجة البشر في كل زمان ومكان .

وكانت نكبة علي - كرم الله وجهه - وما تبعها من مطاردة لآل بيته ، وما حل بهم من القتل كان ذلك دافعا لكثير من الشعراء الى مديحهم وبكاء مقاتلهم ، وبالغ بعض الشعراء في ذلك حتى أخرجوا عليا وآل بيته من مستوى البشر أحيانا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر مكانة آل البيت وفضلهم ودفاعهم عن الاسلام ، وقربهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فالمبالغة التي وردت في مديحهم ورثائهم غير مقبولة في أكثر الأحيان .

ومعروف ما حصل للعلويين في العصر الأموي من الظلم والتقتيل ، ثم ما حدث من صراع بين العباسيين والعلويين حول الخلافة ، وأيهما أحق بها ، الا أن العباسيين استطاعوا القضاء على العلويين ومنافستهم ، واستمر الشعراء في العصر العباسي يتشيعون لعلي وآل بيته ، ويترحمون على قتلاهم ، ويثيرون الأسى والحزن بما يصفونه في قصائدهم

---

(١) هو القاسم بن يوسف بن القاسم بن صبيح ، المجلي بالولاء ، أبو محمد من أهل الكوفة ، وهو أخو احمد بن يوسف الكاتب (وزير المأمون) ، توفي سنة ٢٢٠هـ وانظر في ترجمته : الأوراق للصولي : ١٦٣ ، والاعلام : ٢٢١٦ .

(٢) الأوراق : ١٩٣ .

من الظلم الذى نزل بهم ، وانتزاع الخلافة منهم مع أنهم أحق بها من العباسيين في نظر الشيعة ، ومن أشهر الشعراء الذين تشيعوا لآل البيت دعبل الخزاعي والسيد الحميرى ومنصور النمرى وديك الجن ، وقد وردت في أشعار هؤلاء وغيرهم قصائد رائعة وأبيات إسلامية تتصف بالاعتدال وعدم المغالاة .

ولنستمع الى دعبل الخزاعي وهو يمدح علياً — كرم الله وجهه — ويشيد ببطولته عندما نام في فراش النبي صلى الله عليه وسلم — ، يقول :

وهو المقيم على فراش محمد ... حتى وقاه كائداً ومكيدا
وهو المقدّم عند حومات الوغى ... ما ليس ينكر ،طارفاً وتليدا (١)

أما مديح الخلفاء والوزراء والقواد فهو أوسع أنواع المديح الاسلامي ،بل هو أوسع أنواع المديح جميعا ، ويحتل مكانة كبرى في دواوين الشعراء في مختلف العصور ، ولا عجب في ذلك لأن الشعراء يندفعون وراء المال والمنصب ، ويحبون التقرب إلى ذوى الجاه والسلطان ، وقد يدفعهم إلى المديح الاعجاب بالممدوح وما يتصف به من أخلاق ، وما قام به من أعمال .

وفي العصر العباسي اتسعت رقعة المديح بوجه عام ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء لا تحده حدود ، فقد نثر الذهب في حجور الشعراء ، ونالوا ما لا يحصى من العطايا والهبات ، فتزاحم الشعراء على أبواب الخلفاء وذوى الجاه من وزراء وقواد وولاة ، وذلك أملا في نيل العطاء والتقرب الى الممدوح .
ونظم الشعراء في العصر العباسي مئات القصائد في مديح الخلفاء ومن حولهم ، فكان من هذه القصائد ما هو جيد ومنها ما هو ردىء ، وكان بعضها صادقا ، واكثرها متملق مجامل ، ولكن الشعراء استغلوا طاقاتهم الفنية لتغطية ضعف العاطفة في مدائحهم.

وفي تحديدنا لمفهوم الشعر الاسلامي قلنا إنّ ما يهمنا في دراستنا للاتجاه الإسلامي هو ما قيل ، لا من قال ، فإذا ظهرت على القصيدة الروح الإسلامية دخلت في الموضوع بغض النظر عن صدق العاطفة أو كذبها ، وليس معنى هذا أننا ننكر دور العاطفة الصادقة في قوة الشعر وجماله ولكننا لا نستطيع الجزم بصدق الشاعر أو كذبه في مديحه

---

(١) شعر دعبل الخزاعي : ٢٥٢ .

ثم لو استطعنا ذلك فان ما يهمنا هو تلك النماذج للشعر الإسلامي التي تصور الفضيلة ، وتشيد بالأخلاق الكريمة ، وتضفي على الممدوح صفات المسلم من شجاعة وأمانة وصدق ، يهمنا إذاً تلك النماذج الاسلامية التي تعطي للشاب المسلم صورة لرجالنا الأفذاذ ، وتثير في نفسه الحماسة الإسلامية ، وتدعوه إلى الاقتداء بصفات هؤلاء الأبطال .

ولا بد لنا في هذا المقام من إشارة سريعة الى ما أصاب قصيدة المديح من تطور على يد الشاعر العباسي ، وقد سبق تفصيل التطور الذى حدث في أغراض الشعر العباسي جميعها عندما تحدثنا عن تطور الشعر العباسي ، وباختصار فقد حاول الشعراء العباسيون الخروج على نظام قصيدة المديح ، وذلك بحذف المقدمة الغزلية او استبعاد وصف الأطلال والرسوم ، واستبدلها بعض الشعراء بوصف الخمر ، أو وصف القصور والطبيعة ، وكان زعيم هذا الاتجاه أبو نواس . ومع هذا فأغلب قصائد المديح في العصر العباسي مبدوءة بالمقدمة الغزلية ووصف الأطلال .

واتجه الشعراء في العصر العباسي إلى نعت الممدوح بالفضائل المعنوية ، واستبعدوا الفضائل الحسية كالتشبيه بالأسد أو غيره من الحيوانات ، كما صور الشعراء في هذا العصر المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، واستنبطوا معاني طريفة في السماحة والكرم والحلم والمروءة والشجاعة ، وجسموا هذه المعاني في الممدوحين تجسيما قويا .

كما سجل الشعراء في مدائحهم وقائع العصر وحوادثه ، واستقصوها وأبدعوا في وصفهم لها ، وكانت الحروب بين الدولة الاسلامية وبين أعدائها من الترك والبيزنطيين مجالا واسعا لخيال الشعراء وابداعهم ، فأثاروا الحماسة الاسلامية للدفاع عن ثغور المسلمين ، وحفزوا الهمم ، وصوروا البطولة والتضحية والانتصار أروع تصوير ، وبذلك أصبحت قصائد المديح أشبه بوثائق تاريخية يختلف أسلوبها عن أسلوب التاريخ المملول .

وكان بشار وأبو نواس وأبو تمام وعلي بن الجهم ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية من أبرز الشعراء في هذا العصر ، واحتل المديح مكانة بارزة في دواوينهم ، كما كان المهدى والرشيد والمأمون والمتوكل من أبرز الخلفاء الذين تغنى الشعراء بمديحهم ، وارتفعت أصواتهم بترديد صفاتهم الحميدة وأعمالهم الجليلة .

ويحق لنا أن نتساءل هنا : هل نعتبر كل شعر يضفي على الممدوح صفات الكرم أو الشجاعة أو علو الهمة مديحا إسلاميا ؟ الجواب : لا ، لأننا نريد بالكرم كرم المسلم الذى يرجو ثواب الله ، وكرم الخليفة الذى ينشر العدل بين رعيته لا كرم المباهاة والمفاخرة وتضييع الأموال بدون حساب ، ونريد بالشجاعة شجاعة المسلم في سبيل الله ، وشجاعة القائد ضد أعداء الاسلام ، وشجاعة المؤمن الذى يريد اعلاء كلمة الله ورفع راية المسلمين ، ولا نريد شجاعة المتهور المغرور من أجل عصبية قبلية ، ولا نريد شجاعة الظالم الذى يريد إذلال غيره واظهار قوته أمام الآخرين .

وعلى هذا فليس كل شعر يمدح بالشجاعة والكرم داخلا تحت مفهوم الشعر الاسلامي لأن الشعراء كانوا يضفون صفة الكرم والشجاعة على ممدوحهم قبل الاسلام .

وكانت للخليفة مكانة عظيمة في نفوس المسلمين ، لأنه المسؤول الأول عن شئون الرعية ، وهو خادم الاسلام الذى تجب طاعته ، وقد حرص الشعراء في مدائحهم على ابراز الخليفة بمظهر الرجل المسلم الحريص على مصالح المسلمين ورفعة الاسلام.

وكان الاسلام قطبا تدور حوله معاني الشعراء في مديحهم للخلفاء ،فبالخليفة أعز الله الاسلام وأذل الشرك ، وارتفعت راية المسلمين ، والخليفة يطبق تعاليم الاسلام ويعدل بين رعيته ، ويرفع الظلم عن المظلوم ، ويعطي كل ذى حق حقه ، وهيبة الخليفة ترتعد لها فرائص المشركين ، والخليفة متواضع لله ، فقتد برسوله الأمين .

هذا الى جانب الصفات الذاتية فالممدوح كريم النفس عالي الهمة ، راجح العقل ، له دراية بالسياسة وتدبير الأمور ، يبتسم عند لقاء الخطوب ، ويحلم عند الغضب .

تلك هي أهم المعاني والصفات التي تناولها الشاعر العباسي في مديحة للخلفاء ،وصاغها بأسلوب رائع ، وأبدع في تصويرها وابرازها للسامعين .

ولنترك تلك الروائع الاسلامية في المديح تعبر عن نفسها وعن معانيها ،فهي أبلغ في التعبير والبيان ، فهذا بشار[1] يمدح المهدى فيقول :

---

(١) هو بشار بن برد بن يرجوخ ،من موالي بني عقيل ، ولد بالبصرة ضريرا سنة ٩٢ هـ ، زعيم الشعراء المحدثين ،مدح الخلفاء والوزراء العباسيين ، وهاجى حماد عجرد واختلف الى حلقات المتكلمين ،وكان يقول غزلا مكشوفا ، وقد قتله المهدى لزندقته ضربا بالسياط سنة ١٦٨ هـ ، ودفن بالبصرة ، وانظر ترجمته وأخباره : الاغاني : ٣/١٣٥ وطبقات الشعراء: ٢١ ، والشعر والشعراء : ٢/٧٥٧ ، ووفيات الاعيان : ١/٢٤٥ ، وتاريخ بغداد : ٧/١١٢ ، والاعلام : ٢/٢٤ . وانظر أيضا بشار لكل من ابراهيم المازني وعمر فروخ وطه الحاجرى والعقاد . وله ديوان مطبوع يتكون من ثلاثة أجزاء شرحها ونشرها محمد بن الطاهر عاشور .

والله أصلح بالمهدى فاسدنا ... سرنا إليه وكان الناس قد فسدوا
داوى صدورهم من بعد ما نغلت ... كما يداوى بدهن العرّة العنـد
ولم يدع أحدا ممن بغى وطغى ... إلا تناولهم بالكف فاحتصِدوا
بل لم يكن لجموع المشركين بـه ... ولا بشيعته حول ولا بـدد
سدّ الثغور بخيل الله ملجمة ... وفي الخيول وفي فرسانها سـدد (١)

فالله أصلح الفساد بالمهدى الذى قضى على الطغاة والبغاة ، وحمى ثغور المسلمين من كل معتد أثيم .

وبشار أدرك أواخر الدولة الأموية ، ومدح يزيد بن هبيرة ، كما أدرك أوائل الدولة العباسية فمدح المهدى والبرامكة ومسلم بن قتيبة الباهلي .

أما أبو نواس فقد مدح الرشيد والبرامكة ، ونادم الأمين ومدحه ، ثم رثاه ، ونجد أبا نواس يردد المعاني الاسلامية في مدائحه للخلفاء ، ويلبسهم حللا من القداسة الدينية ، والأخلاق الاسلامية ، فاذا قرأت مدائحه تبادر اليك أن الشاعر صادق في عاطفته عامل بما يقول ، ولكنه كان لا يعرف للدين حقه ، ولا للخلق قيمته في كثير من الأحيان ، وهكذا الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، والذى يهمنا من شعر أبي نواس هو ذلك المديح الاسلامي الذى رددة بأسلوب سهل رصين ، وبمعان اسلامية رائعة ، فهو يمدح الرشيد بحسن التدبير والسياسة ، فالرعية مطمئنة لقيادته لأنه يخاف الله ويراقبه :

تبارك من ساس الأمور بعلمـه ... وفضل هارونا على الخلفـاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الأمنـاء
إمام يخاف الله حتى كأنـه ... يؤمل رؤياه صباح مساء (٢)

ويستعطف أبو نواس الرشيد عندما سجنه ، ويذكر أن الله أعز به الاسلام ، وحصنه وأخاف أهل الشرك ، ويبدع أبو نواس في وصف غزو الرشيد للروم ، وجعل هذا الغزو بمثابة زيارة يقوم بها واصل لقاطع ، يقول :

براك الله للاسلام عزاً وناصـرا ... وحصنا دون بيضتـه حصينـا
لقد أرهبت أهل الشرك حتى ... تركتهم وما يتذمرونـا
تزورهم بنفسك كل عـام ... زيارة واصل للقاطعينـا
ولو شئت اكتفيت الى نعيـم ... وقاسى الأمر دونك آخرونـا (٣)

---

(١) الديوان : ٢/٢٨٦ . (٢) ديوان أبي نواس : ٤٠٢ .
(٣) الديوان : ٤٠٣ .

ثم يبالغ أبو نواس في وصف خوف الأعداء من الرشيد ويقول :

لقد اتقيت الله حق تقاتـــه وجهدت نفسك فوق جهد المتقـي
وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلـــق (١)

وهذه بلا شك مبالغة غير مقبولة ينبو عنها الذوق السليم .

أما صريع الغواني مسلم(٢) بن الوليد فقد مدح الرشيد أيضا ، وأشاد بانتصاراته على الروم ، ومدح القائد يزيد بن مزيد الشيباني الذى قضى على ثورة الوليد ابن طريف الخارجي ، كما قضى على ثورة يوسف البرم الذى ثار في عهد المهدى بخراســـان ونجد تلك المعاني الاسلامية التي أوردنا طرفا منها تتردد في شعر مسلم ،من حماية الخليفة للاسلام ودفاعه المجيد عن ثغوره ، يقول مسلم في مدح الرشيد :

خليفة الله إن النصر مقتصـر عليك مذ أنت مبلـوّ ومختـبر
أعددت للحرب سيفا من بني مطر يمضي بأمرك مخلوعا له العـذر
لاقى بنو قيصر لما هممت بهم مثل الذى سوف تلقى مثله الخـزر
لقد بعثت إلى خاقان جائحة خرقاء حصّاء لا تبقي ولا تـذر (٣)

---

(١) الديوان : ٤٠١ .

(٢) هو مسلم بن الوليد ،الانصارى بالولاء ، ولد بالكوفة سنة ١٤٠ هـ ونشأ بها ، ثم انتقل الى البصرة ، لقبه الرشيد بصريع الغواني بسبب بيت قاله ، شاعر غزل أول من اكثر من البديع في شعره ، وتبعه الشعراء في ذلك ، كان على معرفـة واسعة بالشعر الجاهلي والاسلامي ، مدح الرشيد والبرامكة ، ونال عطاياهـم ، كما مدح داود بن يزيد ويزيد بن مزيد الشيباني ، تولى مظالم جرجان الى أن مات بها سنة ٢٠٨ هـ ، له ديوان مطبوع حققه سامي الدهان وطبع بدار المعارف بمصر . انظر ترجمته وأخباره :
الشعر والشعراء : ٨٣٢/٢ ، وطبقات ابن المعتز : ٢٣٥ ، وتاريخ بغداد : ٩٣/١٦ ، ومعاهد التنصيص : ٥٥/٣ ، والاعلام : ١٢٠/٨ ، وانظر صريع الغواني لمحمد جميل سلطان ، ومسلم بن الوليد لفؤاد ترزى (طبع بيروت) .

(٣) ديوان مسلم : ٢٥٤ .

ونقف طويلا عند أبي تمام[1] شاعر الحماسة الاسلامية الأول في هذا العصر الذى صاغ بدرر نظمه أروع صفحات المجد والبطولة الاسلامية ، وصور معارك المسلمين ، وشجاعة قوادهم وهزيمة أعدائهم أروع تصوير .

وإذا كنا فيما مضى قد ألممنا باليسير من الأشعار التي تصور بطولات المسلمين وتصف معاركهم ، وتشيد بتضحية خلفائهم من أجل الدفاع عن الاسلام ، إذا كنا فعلنا ذلك فاننا سنرى أبا تمام خير من يمثل هذا الاتجاه الاسلامي في المديح ، والذى يحق لنا أن نسميه حماسة إسلامية أيضا .
وروائع أبي تمام في المعتصم والمأمون من الخلفاء ، وفي خالد بن يزيد ومحمد بن يوسف الثغرى وأبي دلف العجلى من القواد ، هذه الروائع تعتبر من درر الشعر العربي على الاطلاق .

وقد كانت انتصارات الخلفاء والقواد في حروبهم تهز شاعرية أبي تمام هزاً عنيفا ، فيشدو متغنيا بتلك الفتوح ، ومفتخراً بقادتها الشجعان ، وجنودها الأشاوس ، متضرعا الى الله أن يكلأ هؤلاء بعنايته ،فهم حماة الاسلام ودرع الأمة الواقي .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائي ، أحد أمراء البيان العربي ، ولد بقرية " جاسم " قرى حوران بسوريا سنة ١٩٠ هـ تقريبا ، رحل الى مصر ، ومنها استقدمه المعتصم الى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء عصره .
ويتميز أبو تمام بذكاء حاد وذهن وقاد وبديهة حاضرة ، ومن مؤلفاته ديوان الحماسة ، تولى بريد الموصل ، ولم يتم سنتين حتى توفي بها سنة ٢٣١ هـ .
انظر في ترجمته وأخباره وأشعاره :
الاغاني (دار الكتب) : ١٦/٣٨٣ ، وماهد التنصيص : ١/٣٨ ، وتاريخ بغداد : ٨/٢٤٨ ، وانظر أيضا : الموازنة بين الطائيين للآمدى ، وأخبار أبي تمام للصولي ، وهبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي ، وأبو تمام الطائي لنجيب البهبيتي ، وأبا تمام لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه عدة طبعات أهمها طبعة دار المعارف بشرح الخطيب التبريزى وتحقيق محمد عبده عزام .

وقد وجد أبو تمام من انتصارات المأمون والمعتصم على الروم ، وقضاء القواد على بابك الخرمي ومازيار بن قارن مادة حية لتلك الملاحم التي سجلها باعتزاز وفخر ، وساعده على ذلك خياله الواسع وشاعريته الفذة وعاطفته الجياشة .

ويطول الحديث لو استعرضنا روائع أبي تمام جميعها ، وما فيها من معان رفيعة وصور مبتكرة ، وسنعرض بعض هذه الروائع عندما نتحدث عن مدح القواد والوزراء كما سنشاهد نماذج منها عند الحديث عن الرثاء .

ويكفي نموذجا لمدائح أبي تمام الاسلامية ملحمته الرائعة في مدح المعتصم عندما فتح عموريّة ، والتي سجل فيها انتصاره العظيم ، وهو في هذه القصيدة مبتهج ابتهاجاً لا حد له بهذا الفتح المبين ، وقد استهل قصيدته بالسخرية والاستهزاء بالمنجمين ، وما زعموه من أن المعتصم لن يفتحها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية ؟ أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
لو بيّنت قط أمرا قبل موقعه ... لم تخف ما حل بالأوثان والصلب(١)

ويعبر عن فرحته بهذا النصر المؤزر ، وما حققه للمسلمين من أمان وآمال وما حدث للروم من هزيمة وهوان فيقول :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعراء أو نثر من الخطب
فتح تفتق أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب(٢)

---

(١) الديوان : ١/ ٤٠ ، ٤٥

(٢) الديوان : ١/ ٤٧ وما بعدها .

ثم يصور أبو تمام استعصاء عمورية على ملوك الفرس والتبابعة ، حتى كأنها تنتظر هذا الفاتح العظيم ، ويبدع في وصف حريقها وخرابها ويقول :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرتَ فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبى من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة في ذا ولم وتجب (١)

ويصل أبو تمام إلى حدّ المبالغة في وصفه لشجاعة المعتصم وخوف الأعداء منه ، فالمعتصم يتقدمه جيش من الرعب ، والمعتصم بمفرده يكوّن جيشاً جراراً ، واستمع اليه في هذا يقول :

لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفل لجب (٢)

ويختتم أبو تمام ملحمته العظيمة بالدعاء للمعتصم بأن يجزيه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ويقرن بين عمورية وغزوة بدر الكبرى ، لأن كلاً منهما كانت عزاً للمسلمين ونصرة للإسلام .

وعاطفة الشاعر الدينية مشبوبة في جميع أبيات القصيدة ، فهو فرح متحمس ، شاهد المعركة بأم عينه ، ورأى جحافل الأعداء تتبدد ، ورايات الإسلام ترفرف .

والمدائح الإسلامية في هذا العصر يصعب عرضها ، لأن دواوين الشعراء مملوءة بمثل هذه القصائد وما فيها من المعاني الإسلامية ، وساعد على ذلك تشجيع الخلفاء لشعراء المديح ، فانكبوا من كل حدب وصوب ، ودبجوا قصائد المديح — إن صدقا وإن كذبا — وأطالوا فأتوا بالجيد الرائع ، وبالغوا ووصلوا حد الاسفاف .

---

(١) الديوان : ١/ ٥٣

(٢) الديوان : ١/ ٥٩ .

وطرق أبواب الخلفاء شعراء آخرون ، ومدحوا ونالوا العطايا ، وكان منهم علي بن الجهم الذى مدح المتوكل ، ومروان بن أبي حفصه الذى مدح المهـــدى والرشيد ، وأشجع السلمى الذى مدح الرشيد أيضا ، وقد ردد هؤلاء في مدائحهم تلك المعاني الإسلامية السابقة ، والمثل العليا التي يتصف بها الممدوح .

وعلي بن الجهم شارك في تسجيل انتصارات المعتصم ، وأشاد بقضائه علـــى الثائرين ضد الإسلام ، ففي القضاء عليهم عز ونصر للإسلام ، يقول :

وليت فلم تدع للدين شـــأراً ... سيوفك والمثقفة الدوامـــي
نصبت المازيار على ســـــحوق ... وبابك والنصارى في نظـــام
مناظـــر لا يزال الدين منهـــا ... عزيز النصـــر ممنوع المـــرام
وعموريـــة ابتدرت اليهـــــا ... بوادر من عزيز ذى انتقـــام(١)

ومروان بن أبي حفصة (٢) أحد شعراء الدعوة العباسية ــ يمجد انتصارات الرشيد على الروم ، وحمايته لثغور المسلمين ، ويعتز بأن الرشيد أجبر الروم على دفع الجزية عن يد وهم صاغرون ، فهو يقول :

وســـدت بهارون الثغور وأحكمت ... به مـــن أمور المسلمين المرائـــر
وما انفك معقوداً بنصـــر لواؤه ... له عســـكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزيـــة ... على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر (٣)

---

(١) ديوان علي بن الجهم: ٨—١١ .

(٢) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة ، يكنى بأبي السمط ، نشأ في العصر الاموى باليمامة حيث منازل أهله ، وأدرك العصر العباسي فقدم بغداد ، ومدح المهدى والرشيد ،كما مدح معن بن زائدة الشيباني ، وكان مولده سنة ١٠٥ هـ وتوفي ببغداد سنة ١٨٢هـ. وانظر في ترجمة مروان وأخباره : الأغاني : ١٠/٧١ ، ووفيات الاعيان : ٤/٢٧٦ ، والشعر والشعراء: ٢/٧٦٣ ، ومعجم الشعراء : ٣٩٦ ، وتاريخ بغداد : ١٣/١٤٢ ، والاعلام : ٨/٥٩ ، وتاريخ الطبرى : ٨/٣٤٧ .

(٣) الطبرى : ٨/٣٤٧ .

وكما تزاحم الشعراء على أبواب الخلفاء ، ومدحوهم فنالوا عطاياهم ،فقد كان للقواد والوزراء نصيب وافر من هذه الأشعار ، وحظ من التغني بالبطولات والأمجاد والأخلاق الحميدة ، وكان الشاعر يراعي منزلة الممدوح فيمدح الخليفة بحسن تدبير أمور الدولة وتطبيق شريعة الاسلام ، ويمدح الوزير برجاحة العقل وحكمة السياسة ويطيل عن الشجاعة ، والبطولة وخوض معامع القتال إذا كان الممدوح قائدا .

ومن أشهر الوزراء العباسيين الذين تغنى الشعراء بمديحهم البرامكة ، فقد كانوا يجزلون العطاء ، ويغدقون على الشعراء سيلاً من الأموال ، حتى نافسوا الخلفاء في بعض الأحيان ، ومن أشهر شعراء البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحقي وأشجع السلمي وسلم الخاسر ، ومن الوزراء أيضا الحسن بن سهل والفضل بن سهل ومحمد بن عبد الملك الزيات الذين كثرت المدائح فيهم .

وكانت قصائد المدح للوزراء تطبع بالطابع الإسلامي أحيانا ، فيضفي الشاعر على الوزير صفة البطولة والدفاع عن ديار الإسلام ، يقول مروان ابن أبي حفصة في مدح الفضل بن يحيى :

أذلت مع الشرك النفاق سيوفه ... وكانت لأهل الدين عزاً مؤيدا
أبحت جبال الكابلي ولم تدع ... بهنّ لنيران الضلالة موقدا
فأطلعتها خيلا وطئن جموعه ... قتيلاً وأسوراً وفلا مشردا (١)

وقد اشتهر معن بن زائدة من الولاة بكثرة عطاياه وكثرة مداحه ،كما اشتهر من القواد عمر بن العلاء ويزيد بن مزيد الشيباني ، وخالد بن يزيد بن مزيد وأبو دلف العجلي ومحمد بن يوسف الثغري .

وحظي هؤلاء القادة بتقدير الشعراء واعجابهم ، فراح الشعراء يصورون بطولاتهم أروع تصوير ، ويسجلون آيات الاعجاب بانتصاراتهم ، فهم الشجعان والكماة ، وهم حماة الإسلام الذين أذاقوا العدو كأس الذل والهوان ، ويصورون في مدائحهم المعارك الحربية ، وما فيها من غبار كالسحب وسيوف كالبرق ، وجثث مترامية وغير ذلك من الصور الرائعة حتى تنقلك إلى أرض المعركة وأنت تقرأ هذه القصائد .

---

(١) الطبري : ٨/ ٢٦٠ .

وأفعمت القصائد في مدين القواد بالروح الاسلامية ، وعمت أبياتها نغمة الدفاع عن الاسلام والذب عن حياضه ، وفي ذلك يقول أبو تمام في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى :

يا فارس الإسلام أنت حميته ... وكفيته كلب العدو المعتدى
ونصرته بكتائب صيرتها ... نصبا لعورات العدو بمرصدِ
أصبحت مفتاح الثغور وقفلها ... وسداد ثلمتها التي لم تسددِ
أدركت فيه دم الشهيد وثاره ... وفلجت فيه بشكر كل موحدِ
ضحكت له أكباد مكة ضحكها ... في يوم بدر والعتاد الشهدِ (١)

ويقول مسلم بن الوليد يمجد بطولة يزيد بن مزيد الشيباني :

أذكرت سيف رسول الله سنته ... وبأس أول من صلى ومن صاما
قطعت في الله أرحام القريب كما ... وصلت في الله أرحاما وأرحاما (٢)

وغير هذا كثير من أناشيد التغني بالبطولة والايمان ، وأناشيد الحماسة الاسلامية التي سجد بها الشعراء بطولات قادة المسلمين في فترة من أعز فترات تاريخ المسلمين كما سجلوا بها معارك المسلمين ، وصوروا النصر في أجمل صوره ، وصوروا الهزيمة في أبشع صورها ، فأبدعوا في هذا وذاك .

وخلاصة القول في المديح أنه غرض من أوسع الاغراض الإسلامية ، وأكثرها إلماماً بواقع الإسلامية في حروبها وسلمها وأخلاقها ودينها .
وضرب المديح الإسلامي للمسلم أروع الأمثلة في المثل العليا والأخلاق الفاضلة ، كما رسم له طريق الرجولة وسلالم المعاني من خلال صفات أولئك العظماء ، كما أثار في نفوس المسلمين الحماسة لدينهم ، والدفاع عن أوطانهم كما دافع هؤلاء وبنوا الأمجاد للدولة الإسلامية .
ولا زلنا حتى اليوم نردد تلك الروائع الإسلامية ، وستبقى خالدة تثير الفتوة وتبعث على التضحية والفداء والاخلاص من أجل رفع راية الإسلام والدفاع عن أوطان المسلمين .

---

(١) ديوان أبي تمام : ٢/١٣٨
(٢) أرحام القريب : يعني بذلك قتله للوليد بن طريف الشيباني ، وكان ابن عمه .

ولا يضير هذه المدائح الإسلامية ضعف العاطفة عند بعض الشعراء كما لا ينقص من قيمتها أن المال كان هدفاً من وراء نظمها ، ذلك لأن العاطفة الدينية تقوى وتضعف ، والمال عصب الحياة لكل إنسان ، والمرء يحب المال حبا جما كما صور بذلك القرآن الكريم ، ويكفينا أن الروح الاسلامية ظاهرة على اكثر هذه المدائح .

ومن الملاحظ في أسلوب هذه القصائد القوة والحماس ، لتناسب مقام الخليفة أو القائد ، فالخليفة له هيبته ، والقائد يجب أن تبرز بطولته ، وهكذا . وقد اختار الشعراء لقصائد المديح البحور الطويلة ، والكلمات الجزلة الرصينة والأساليب القوية المؤثرة ، وتلك مميزات لا بد منها في المديح فهو مجال الفخر والاعتزاز ، ومكان الاعجاب ورسم البطولات .

وقد آثرت إبعاد المدائح التي يتضح فيها التعصب للأحزاب السياسية ، أو التي لا تظهر عليها سمة الإسلام حتى لا نخرج عما حددناه لأنفسنا في مفهوم الشعر الاسلامي .

*****

الهجاء والدفاع عن الاسلام

الهجاء ضد المديح ، فن يستهدف ثلب المهجو والسخرية به ، وحط منزلته بين الناس ، كما أن المديح فن رفع منزلة الممدوح وذلك بنشر صفاته الحميدة ، واضافة صفات قد لا تكون موجودة فيه ، كما أن الهاجي ينشر صفات المهجو القبيحة ، ويبالغ في قبحها ، وقد يضيف صفات قبيحة ليست موجودة فيه .

والهجاء فن من أقدم فنون الشعر العربي دفعت إليه دوافع مختلفة باختلاف الأشخاص والأزمان والمؤثرات العامة .
وقد عرف الجاهليون الهجاء والفخر والمدح ، تلك الأغراض التي تناسب حياة الصراع بينهم ، ولكن الهجاء في الجاهلية أقرب إلى المناظرة والفخر منه إلى الهجاء الحقيقي الذى انتشر في العصر الأموى على يد جرير والأخطل والفرزدق ، ونقائضهم في هذا المجال مشهورة .

وكان الهجاء في العصر الأموى يعتمد على سلب المهجو صفات الممدوح من كرم وشجاعة ونسب عريق ، وكان الشاعر يهجو صاحبه بالبخل والجبن وضعف النسب ، ودنو الهمة ، وعدم الترفع إلى كسب المعالي ، كما يستهدف الطعن في قبيلة المهجو وأنها قبيلة لا شأن لها ولا سلطان ، ووصل الهجاء في العصر الأموى إلى حد الاقذاع أحيانا .

وفي العصر العباسي كثر الترف ، وعم الرخاء ، واختلطت الدماء والثقافات ، فاتخذ الهجاء مظهراً جديداً ألا وهو الاقذاع والفحش ، وهتك الحرمات وذكر العورات الى حد يترفع عنه صاحب الخلق الكريم .
كما اتجه الهجاء في العصر العباسي إلى الاضحاك والسخرية ورسم صورة مضحكة للمهجو يصورها الشاعر بأسلوب سهل ، فتنتشر بين الناس بسرعة ، ولعل المجون وضعف الوازع الديني كانا من أهم الدوافع إلى هذا النوع من الهجاء المقذع الساخر معا ، وهجاء حماد عجرد وغيره أكبر مثال على هذا النوع من الهجاء .

تلك لمحة سريعة عن الهجاء في العصر الأموى والعباسي ، ولكن هل يمكن أن تعتبر الهجاء أو نوعاً من أنواعه غرضا إسلاميا ؟ وإذا صح هذا الاعتبار فما نوع

الهجاء الذي يدخل تحت قائمة الاتجاه الإسلامي ؟
وقبل أن نجيب على هذا التساؤل لا بد لنا من البحث عن دوافع الهجاء في العصر العباسي ، ولا بد من معرفة مظاهر هذا الهجاء .

أما دوافع الهجاء فمتعددة مختلفة ، فقد يكون الدافع ثأراً بين شخص وآخر أو خصومة استفحلت ، أو حسداً من شخص لآخر ، وقد يكون الدافع أيضا حب الشهرة كأن يهجو شاعرٌ شاعراً آخر مشهور ليرتفع اسمه بين الناس ، وقد يدفع التعصب الديني أو السياسي إلى الهجاء ، وعندما يخيب أمل الشاعر في ممدوحه قد يهجوه أحيانا .

ومظاهر الهجاء مختلفة ، فقد يكون نزيهاً يسلب المهجو صفات حميدة كالكرم والشجاعة ، وقد يكون مقذعا يكشف العورات ، ويتميز بالدعارة والفجور ، وقد يكون مضحكا مثيرا للضحك والسخرية والتسلية .
وقد انتشرت في العصر العباسي موجة الهجاء المقذع والساخر لأسباب كثيرة أهمها انتشار الترف والمجون وضعف الوازع الديني ، وبالتالي ضعف الأغراض وهوان الذرامات وان كانت هذه الموجة من الهجاء لم تنتشر إلا بين طبقة من المجان والخلعاء الذين رفعوا رداء الحياء والكرامة عن وجوههم .
وتعددت في العصر العباسي الملل والنحل المنحرفة ، ووجد أصحاب الأهواء مجالاً واسعا للتعبير عن انحرافهم ، وأمر القول بخلق القرآن ذائع مشهور حتى صار عقيدة رسمية للدولة في عهد المأمون ، والنزاع حول التقدر والجبر والاختيار يرتفع صوته ويعلو وكان من نتائج هذا أن وقف أهل السنة مدافعين عن مبادئ الدين الحنيف ،واتخذوا الشعر وسيلة من وسائل الدفاع .

ومما لا شك فيه أن كثيراً من الهجاء في هذا العصر لا يدخل في الاتجاه الإسلامي لأنه لا يهدف إلى الإصلاح ، ولا يرشد إلى الطريق السوى ، والمهاترات بين الشعراء وهتك الحرمات وسلب المهجو صفات الرجولة نزول بالفن الشعرى عن هدفه النبيل من امتاع واصلاح ، وحتى الهجاء بالزندقة والانحراف لا يُعتبر اتجاهاً إسلامياً في الهجاء ،لأن المتهم لم يكن زنديقاً ولا منحرفاً في الغالب ، وليس هدف الشاعر من هجائه الاصلاح ، وحتى لو كان هدفه الاصلاح فان الاصلاح والتوجيه لا يكونان بهذه الطريقة .

وبهذا نكون قد أخرجنا أغلب الهجاء من الاتجاه الإسلامي ، ولم يبق من الهجاء الذى نريد دراسته في هذا البحث إلا ذلك الهجاء الذى يكون دافعه الغيرة على الاسلام ، أو اصلاح الانحراف وبيان الضلال ، وتوضيح الطريق السليم للمنحرفين ، وذلك بأسلوب لا يدخله فحش أو اقذاع ، وعلى أن يكون المهجو قد اتصف فعلا بما رمي به ونضرب لذلك مثلا بهجاء من قال بخلق القرآن وبيان ضلاله ، وأن هذا مناف لما نص عليه القرآن الكريم ، وهجاء بعض الفرق الدينية كالتي تقول بوجود إلهين أو التي تنفي ارادة المخلوق وغيرها من الفرق المنحرفة ومن اعتنق هذه المذاهب الهدامة المنافية لمبادىء الاسلام ، وهذا النوع من الهجاء هو الذى يحق لنا أن نسميه هجاءً إسلامياً ، كما يحق لنا أن نسميه دفاعاً عن الإسلام ، فالهجاء الذى حددناه والدفاع عن الإسلام غرضان متشابهان ومتشابكان .

وقد وُجِدَ الهجاء الإسلامي في العصر العباسي الأول ، وكان من أهم دوافعه الانحراف الديني والاستهزاء بقيم الإسلام التي فشت في المجتمع العباسي ، ووجدت سكوتا من ذوى السلطان ، بل ووجدت تأييداً في بعض الأحيان .
وانتشار الفرق الدينية ، وشيوع المحاورات والمناظرات العقيمة التي لا طائل تحتها أمر شائع في العصر العباسي حتى اتخذ شكلاً من الفلسفة العميقة التي تريد تحكيم العقل في كل شيء ، وتريد أن ترفع العقل البشرى فوق مستواه ، وراح هؤلاء الفلاسفة يبحثون عن أصل الله والروح وغير ذلك مما هو فوق مستوى عقول البشر .

وكان بديهيا أن يوجد رد فعل عنيف من رجال الدين والملتزمين وخاصة الفقهاء والمفسرين والمحدثين ، واضطهاد أحمد بن حنبل ليقول بخلق القرآن ذائع مشهور .
وشارك الشعراء في الدفاع عن الإسلام ، ونظموا قصائد في هجاء المنحرفين ، وبينوا ضلالهم وخروجهم عن الطريق الذى رسمه رسول الله (ص) وسار عليه الصحابة رضوان الله عليهم ، كما رد بعض الشعراء على من حاول انتقاص الإسلام والقدح في تشريعاته .
ومع هذا فما يدخل في الاتجاه الاسلامي من الهجاء قليل ، وذلك لأننا أبعدنا من الهجاء أنواعا كثيرة بسبب دوافعها المبتعدة عن روح الاسلام .
والقارىء قد يقول إن الهجاء إذا كان يسلب الصفات الحميدة ، ويثبت الصفات القبيحة يعتبر اتجاها اسلاميا لأنه يجعل السامع والقارىء يبتعد عن هذه الصفات القبيحة والمبادىء الهدامة ، وعلى ذلك ففيه توجيه سليم ، وتحذير للناس من الاتصاف بهذه الصفات المرذولة .

ونقول لمثل هذا القارئ إن طرق التوجيه كثيرة ، وليس منها هذا الطريق الذى يثير البغضاء ، ويكشف عيوباً مستورة ، ويثير الشك في النفوس المؤمنة .

وقد نظم كثير من الشعراء في هجاء المنحرفين والدفاع عن الإسلام ، ولكن ما قيل في هذا قد يكون قليلاً بالنسبة لما قيل في الأغراض الأخرى ، وذلك لانشغال الشعراء بالأغراض التقليدية الأخرى .

ومن الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ، وهجوا أهل الانحراف والضلال شاعر أهل السنة الملتزم[1] علي بن الجهم الذى بدا الالتزام الديني في أغلب شعره ، ووقف مدافعا عن الإسلام وعن مذهب أهل السنة ، ومرادنا بالالتزام هنا هو التزام مذهب أهل السنة والجماعة في العقيدة الدينية ، بحيث يعبر الشاعر عن عقيدته الملتزمة بوضوح ، وقد يتعدى ذلك إلى الرد على المنحرفين عن هذا المذهب كما فعل علي بن الجهم الذى عاصر كثيراً من الزوبعات الدينية والمذاهب المختلفة ، فوقف يعلن مذهب أهل السنة ، ويدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وهو يقول في إحدى قصائده إن ابن الزيات [2] يستهزئ بسنن النبي (ص) ويجدّ في اطفائها ، كما أن أحمد بن أبي دؤاد عطل مجالس الله ، حتى لا يحدث فيها بالاسناد ، وأطفأ مصابيح السنة ، وأوثق المحدثين في الأصفاد ، واضافة إلى ذلك فقد أتى بالبدع وأفسد أمر الإسلام ، يقول علي عن ابن أبي دؤاد لما فُلِج :

فرحت بمصرعك البرية كلها ... من كان منهم موقناً بمعاد
كم مجلس لله قد عطلته ... كي لا يُحَدَّثَ فيه بالأسناد
ولكم مصابيح لنا أطفأتها ... حتى يحيد عن الطريق الهلدى
ولكم كريمة معشر أرملتها ... ومحدث أوثقت في الأصفاد
فذق الهوان معجلاً وموءجلاً ... والله رب العرش بالمرصاد [3]

---

(١) علي بن الجهم لعبد الرحمن الباشا : ١٧٣ .
(٢) الديوان : ٣٩ .
(٣) تكملة ديوان ابن الجهم : ١٢٨

ويخاطب أحمد بن أبي دوءاد منكراً عليه انحرافه عن الطريق القويم ويقول:

ما هذه البدع التي سميتهـــا بالجهل منك العدل والتوحيـدا (١)
أفسدت أمر الدين حين وليته ورميته بأبي الوليد وليـــــدا (٢)

وكثرت في العصر العباسي فرق الشيعة والرافضة ، وغلا بعضهم في علي - كرم الله وجهـــه - وآل بيته ، ووصل هذا إلى حد ادعاء النبوة لعلي رضي الله عنه ، ويقول في هذا هرون بـــن سعد العجلي (٣) منكرا هذا الغلو ، وخاصة من غالية الشيعة الامامية ، وهرون هذا من شعراء الزيدية ، يقول عن الرافضة والشيعة :

ألم تر أن الرافضين تفرقـــوا فكلهم في جعفـر قال منكـــرا
فطائفة قالوا إله ومنهـــم طوائف سمته النبي المطهـــرا
فان كان يرضى ما يقولون جعفر فإني إلى ربي أفارق جعفـــرا (٤)

ويرد السيد الحميرى (٥) على الذين غلوا في علي وجعلوه إلهاً فيقول:

قوم غلـوا في علي لا أبا لهـم وجشّموا أنفساً في حبـه تعبـا
قالوا هو الله جل الله خالقنـا من أن يكون ابن أم أو يكون أبـا (٦)
فمن أدار أمور الخلق بينهـم إذ كان في المهد أو كان في البطن محتجبا

---

(١) المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد .
(٢) الديوان : ١٢٦ ، والمراد بأبي الوليد هو محمد بن أحمد بن أبي دوءاد .
(٣) هو هرون بن سعد العجلي ، رأس الزيدية في أيامه ، من المتزهدين العلماء بالحديث له أشعار قليلة ، خرج مع ابراهيم بن عبدالله وهو شيخ كبير فولاه واسط ، وحينما بلغه مقتل ابراهيم توجه الى البصرة وتوفي بها سنة ١٤٥هـ . وانظر في ترجمته : عيون الاخبار : ٢/ ١٤٥ ، والموشح للمرزباني : ٤٨٣ .
(٤) عيون الأخبار : ٢/ ١٤٥ .
(٥) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد الحميرى ، أبو هاشم ، يلقب بالسيد الحميرى ، من الشعراء الذين وقفوا شعرهم على آل البيت ، ولد بعمان سنة ١٠٥ هـ ، ونشأ بالبصرة مترددا بينها وبين الكوفة ، وتوفي ببغداد ، وقيل بواسط سنة ١٧٣ هـ . له ديوان شعر مطبوع بتحقيق شاكر هادى شكر . وانظر في ترجمته : طبقات ابن المعتز : ٣٢ ، والأغاني : ٧/ ٢٢٩ ، وفوات الوفيات : ١/ ٣٢ ، والاعلام : ١/ ٣٢٠ .
(٦) الديوان : ٧١ .

وانتشرت فتنة القول بخلق القرآن ، وعَمَّ خطرها ، وفُرِضَتْ فرضاً على علماء الدين الذين وقفوا بكل شجاعة أمام هذه الفتنة وخاصة أحمد بن حنبل رضي الله عنه .
ووقف الشعراء يردون على زاعمي هذا القول ، ويوضحون الضلال المبين الذى وقع فيه هؤلاء ، وكان بشر المريسى وأتباعه قد أضلوا المأمون بالقول بخلق القرآن ، فآمن بالفكرة ودعا الناس اليها .

والشاعر الزاهد أبو العتاهية يرد على أحمد بن أبي دؤاد في زعمه بخلق القرآن، وكان الأولى به أن ينشغل بالفقه وعلوم الدين وينصرف عن هذه البدع التي لا ترجع بفائدة ولا تدل على رشد أو استقامة ، ويرد بقوله :

لو كنت في الرأى منسوباً إلى رشد ... وكان عزمك عزماً فيه توفيقِ
لكان في الفقه شغلٌ لو قنعت به ... عن أن تقول كتاب الله مخلوقِ (١)

وسبق أن أنكر علي بن الجهم ما يزعمه ابن أبي دؤاد ، ولنستمع إلى أبي الحجاج الأعرابي يقول لابن أبي دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد ... فأصبح من أطاعك في ارتدادِ
زعمت كلام ربك كان خلقاً ... أما لك عند ربك من معادِ ؟
كلام الله أنزله بعلم ... على جبريل إلى خير العبادِ (٢)

وهذا مجهول يحتج بأن هذا الزعم لم يقل به رسول الله (ص) ولا صحابته ، وانما هو بدعة ابتدعها الزنادقة :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل ... لمن يقول: كلام الله مخلوقُ
ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر ... ولا النبي ولم يذكره صديقُ
ولم يقل ذاك إلا كل مبتدع ... على الرسول وعند الله زنديقُ
بشر أراد به إمحاق دينهم ... لأن دينهم ، والله ممحوقُ (٣)

---

(١) البداية والنهاية : ١٠/ ٣١٦،
(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٢١
(٣) البداية والنهاية : ١٠/ ٢٧٩ .

ولعل ما ذكرناه من أبيات ترد على الزاعمين بخلق القرآن تعطينا فكرة عن اتجاه جديد من الاتجاهات الإسلامية في الشعر العباسي ، وسواء كانت هذه الأبيات هجاء للمنحرفين أو كانت دفاعاً عن الإسلام فإنها على كل حال تمثل جانباً من جوانب الالتزام والتدين في شعر العباسيين .

ولو تتبعنا ما قيل في الرد على هذه الفتنة لتجمع لدينا شعر كثير ، ولكن حسبنا بضعة أبيات تكون دليلاً على ما نقول .

وعلى هذا فإن الحياة العباسية وما انتشر فيها من مذاهب دينية منحرفة أوجدت الدوافع لكثير من الشعراء للتصدى لها ، وكان تشيع بعض الناس لعلي وآل بيته ، والفتنة بخلق القرآن والاعتزال أسباب ثلاثة حركت بعض الشعراء ، فأنكروا هذه الدعاوى الباطلة ، وهجوا من دعا إليها وعمل بها ، وبذلك كان الهجاء والدفاع عن الإسلام غرضين يدخلان في الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي ، ويصوران جزءاً من الحياة العقلية والاتجاهات الشعرية في هذا العصر .

الرثـــــاء

الموت نهاية كل حي ، ومصير كل إنسان طال عمره أو قصر ، وتلك حقيقة آمنت بها الشعوب جميعها ، فهي ترى الناس يخرون صرعى أمام ذلك الخصم الذى لا يهزم وهذا الخصم هو الموت الذى لا مفر منه . وهذه الحقيقة أضاف إليها الإسلام فكرة البعث والجزاء والحساب بعد الموت .

وقد بكى الشعراء قديماً مَنْ رحلوا عن هذه الدنيا ، وكان بكاؤهم عميقاً ، صوروا فيه هذا المصير المحزن الذى ينتظر كل إنسان .

والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي ، وعبرت فيها عن شعورها لفقد قادتها وخلفائها وأبنائها وعلمائها ، وصورت الحزن الذى سيطر على النفوس بسبب الفراق ، وخلطت ذلك بتعداد فضائل المفقود وخلاله الحميدة .

والرثاء فن الحزن والدموع ، فمن تغلب عليه العاطفة الصادقة ، ألا وهي عاطفة الحزن والأسى لفقد المرحوم الذى انتقل إلى جوار ربه ، وقد تختلط هذه العاطفة بالجزع أحياناً فيعبر الشاعر عن كراهيته للموت ، ويصور جزعه الشديد على رحيل المفقود ، وقد يشوب هذه العاطفة الاكبار أو الاحترام أو العطف ، وذلك حسب اختلاف المفقود الذى رثاه الشاعر وتفجع عليه .

والرثاء أنواع ثلاثة : الندب والتأبين والعزاء[1] ، أما الندب فهو ندب الأهل والأقارب عندما يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتوجع ، ويعبر عن صدمة عنيفة صُوِّبت إلى قلبه ، ويبثّ اللوعة والأسى ، ويرسل الدموع غزارا .

والتأبين ليس بكاء ونشيجا ، بل هو أقرب إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ يخر نجم من نجوم المجتمع ، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية .

أما العزاء فهو مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، وذلك حين ينفذ الشاعر من حادثة الموت الفردية إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهي بهذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة .

---

(١) الرثاء لشوقي ضيف (الطبعة الثانية) : ٥ ، ٦ .

وقد عرف الشعر العربي الرثاء منذ أقدم عصوره ، وردد الشعراء قصائدهم الباكيات على أولئك الراحلين ، وعددوا مزاياهم ، وأثنوا على صفاتهم ، وجعلوا فقدهم خطباً عظيماً من الخطوب ومصيبة عظمى حلت بالقبيلة أو الأمة أو الدين ، وكانت مصيبة أسكبت دمعاً غزيرا وقطعت نياط القلوب ، لأن المفقود غال عزيز فهو ابن أو أخ أو قريب أو زعيم أو قائد ، طالت العشرة بينهم وبين الشاعر ، وانتشرت الالفة والمحبة بينهم ، وفجأة فقد واحد من هؤلاء ، وذهب إلى غير رجعة ، وودّع الدنيا والاقارب والخلان .

وفي العصر الجاهلي نجد النساء يجتمعن في المآتم للصياح والعويل على الميت ، ويؤلفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم ، وكانت الخنساء شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي ، وقد بكت أخاها معاوية ثم صخرا بكاء حارا يثير اللوعة ، ويدعو إلى الأسى .

كما نجد متمم بن نويره - وهو من المخضرمين - يبكي أخاه الذى قتل في حروب الردة ، ونجد أبا تمام يبكي أخاه وابنه ، ويصور ساعات الاحتضار تصويراً بارعاً ممزوجاً بالدموع والأحزان .

وغير هذا كثير في ندب الأخوة والأبناء والاقارب ، وهو ندب اتصف بالصدق والأصالة في التعبير عن الأحاسيس ووصف اللوعة لفراق المفقود .

وعندما توفي المصطفى عليه السلام حزنت جميع القلوب لفقده ، وبكت عليه العيون ، وسكبت الدمع الهتون لفراقه ، لأنه قائد الأمة وهاديها إلى طريق الحق والعدل والتوحيد ، وقد رثاه الشعراء منذ وفاته إلى اليوم ، وسيظل الشعر عاجزاً عن تصوير بطولته وسماحته وصبره وخلقه الكريم .

وكما ذرف الشعراء دموعهم على النبي (ص) ذرفوها على آل بيته رضوان الله عليهم ، وكان ما تعرضوا له من القتل والمطاردة معيناً نهل منه الشعراء معانيهم الحزينة في مراثيهم لآل البيت وانطلق الشعراء يذرفون عليهم ، ويبكون كل ذى قلب رحيم على مصرعهم ، فهم الطهرة أرحام النبي وأحفاده ، وهم الشجعان الأتقياء أهل الوقار والايمان .

وكانت الهاشميات للكميت بن زيد الأسدى من أشهر مراثي آل البيت في العصر الأموي ، وتبعه

دعبل الخزاعي ومنصور النمـرى والسيد الحميرى في العصر العباسي ، ويضيق بنا المقـام عن استعراض نماذج من رثاء آل البيت .

وكما ندب الشعراء أبناءهم وإخوانهم ورسولهم وآل بيته فقد أبّنوا خلفاءهم ووزراءهم وقوادهم تأبيناً حاراً يملؤه الحزن والأسى ، وتظهر عليه آيات الفخر والاعتزاز والاعجاب ، ويمتلـيء بصفات المفقود الحميدة ، ذلك المفقود الذى أعز الله به الإسلام ، وقوى به شوكة المسلمـين فهو حامي الذمار ، وهو الحريص على رعاية أمور المسلمين .

وتتناثر قصائد الرثاء للخلفاء والوزراء والقواد في دواوين الشعراء ، وقد يكون الرثاء أقـرب أغراض الشعر إلى صدق العاطفة ، وأبعدها عن المجاملة والتصنع كما في المديح .

وقد تطورت معاني الرثاء قليلاً بعد الإسلام ، لأنه غيّر بعض المفاخر التي كان الجاهليون يعدونها ضمن مراثيهم ، وكان سفك الدماء حسنة من الحسنات في نظرهم ، ولما جاء الإسلام غير هذه النظرة ، وحرّم سفك الدماء إلا بالحق ، وأمر بالعدل والتقوى واخلاص العبادة لله وحده .

ونعى الشعراء في عصر صدر الإسلام خليفة رسول الله أبا بكر ، ثم بكوا لفقد عمر وعثمان وعلـي رضوان الله عليهم ، وذكروا في مراثيهم ما كان عليه الصحابة الكرام من التقوى والعدل والحرص على نشر الإسلام في أنحاء المعمورة . واستمر الشعراء في العصر الأموى يسيرون على هـذا الطريق ، فكلما رحل خليفة أو قائد أو وزير أبّنوه ، وفصلوا في صفاته ومحامده ، وكان عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه أهم خليفة رثاه الشعراء لسيرته العادلة وتقواه وخشيته لله سبحانه ، وسنرى في العصر العباسي أمثلة كثيرة لرثاء الخلفاء والوزراء والقواد ، وما جاء في هذه المراثي من المعاني الاسلامية الرفيعة ، والعواطف الصادقة نحو هؤلاء الراحلين .

وأمامنا أنواع من الرثاء كثيرة ، وجدت في العصر العباسي الأول ، ونريد تحديد الإسلامي منها ، وما يدخل في اتجاهنا الذى ندرسه ، كما سنؤيد كل ما نقول بنماذج تمثل هذا الاتجاه .

وهناك من الرثاء ندب الاقارب والابناء ، ورثاء الشاعر لنفسه ساعة الاحتضار، وتأبين الخلفاء والوزراء والقواد وغيرهم .

أما رثاء الشاعر لنفسه فهو تلك الابيات التي ينشدها عندما يدنو منه الموت ويحس بقرب الاجل ، فينظم أبياتاً يضمنها التفكر في دنياه التي مضت ، والندم على شبابه الذى انتهى ، والتحسر على تفريطه في جنب الله .

وكثيرون من الشعراء أنشدوا أبياتاً عند وفاتهم ، وطلبوا كتابتها على قبورهم ، ويهمنا في رثاء الشاعر لنفسه تلك الابيات التي تعبر عن ندمه لارتكاب المعاصي في دنياه وتصور خوفه من عذاب الله وأمله في عفوه وغفرانه .

والذى لا شك فيه أن أكثر الشعراء صور ندمه على ما فات عند وفاته ، واعترف بخطئه وآمن بقدرة الله ، وتصور الجزاء والعقاب .

ونضرب لذلك مثلا بأبي نواس شاعر الخمر والمجون والذى قضى عمره في اللهو والمرح فهو أحس في آخر أيامه بالندم على ما فات ، وسجل اعترافه بالتفريط في أيام الشباب ورجا من ربه المغفرة والرضوان في قوله :

دب فيّ الفناء سفلاً وعلوا ... وأراني أموت عضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي إلا ... نقصتني بمرها بي جزوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي ... وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي علي ليال وأيا ... م تمليتهن لعبا ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهم صفحا وغفرا وعفوا (١)

أما ندب الابناء والاقارب فقد رثى الشاعر العباسي أبناءه وإخوته ، وتفجع عليهم، وأجرى دموعه غزيرة على فراقهم ، لانه بفراقهم فقد اللذة والانس ، ونسي السعادة والهناء ، وخيم عليه الحزن والهم ، ولكن عزاءه الوحيد هو أن الموت نهاية كل إنسان ، وأنه لاحق بالمفقود عما قريب .

وصور الشاعر العباسي في رثائه لابنائه وإخوته ساعات الاحتضار ، ودبيب الموت وانتقل إلى فلسفة الحياة والموت ، وأبدع أيما إبداع ، تساعده في ذلك عاطفته القوية وثقافته الواسعة واطلاعه العميق .

---

(١) ديوان أبي نواس : ٥٨٠ .

ويهمنا من ندب الأبناء والاخوة والاقارب ذلك الرثاء الذى يعبر فيه الشاعر عن تسليمه لقضاء الله وقدره ، ويصور صبره على المصيبة التي تزلت به فإلى الله يرجع الناس جميعا ، ثم يقرن هذا بالدعاء للميت بالمغفرة والرحمة ، وفي هذا يقول بشار في رثاء ابنه الذى أصيب بفقده :

أجارتنا لا تجزعي وأنيبي ... أتاني من الموت المطل نصيبي
صبرت على خير الفتور رزئته ... ولولا اتقاء الله طال نحيبي
الى الله أشكو حاجة قد تقادمت ... على حدث في القلب غير مريب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها ... فلله من داع دعا ومجيب
نؤمل عيشاً في حياة ذميمة ... أضرت بأبدان لنا وقلوب (١)

أما رثاء الخلفاء والوزراء والقواد فقد نشط فيه الشعراء نشاطاً واسعاً ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد الا ورثوه رثاءً حاراً ، وجمعت هذه المراثي بين إثارة الحزن على المفقود ، وإثارة الاعجاب والفخر بأعماله وصفاته ، وإذا كان رثاء البارزين من المجتمع من خلفاء وغيرهم قد عبر عن الحزن والأسى وظهرت عليه علامات الضعف أحياناً فإنه مع ذلك يمتلىء اكثر الأحيان بالحماسة والقوة وتمجيد البطولة تمجيداً يثير الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن عرين الإسلام حتى الموت ، ويحدث أحياناً أن يخر البطل صريعاً في ميادين الشرف والجهاد ، فيرثيه الشعراء بمراثٍ حماسية ، توهج لهيب المشاعر وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال السيوف دفاعاً عن حرمات الدين والوطن .

والأمثلة على الاتجاه الحماسي في الرثاء كثيرة ، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه أبو تمام في مراثيه لمحمد بن حميد الطوسى ، القائد البطل الذى وقع شهيداً وهو يقاتل بابك الخُرَّمي وجنوده ، ولم يُلْقِ السلاح حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .
كما ذُرِفَت الدموع على القائد يزيد بن مزيد الشيباني الذى فتك بخوارج الموصل ، ورثاه أبو تمام وغيره من الشعراء ، وحظي منصور بن زياد قائد الرشيد بمراث جيده ، وبعد أن نكب الرشيد البرامكة رثاهم الشعراء ، وصوروا في مراثيهم سداد الرأى والشجاعة والكرم الذى تميز به الوزراء من البرامكة .
ولم يمت خليفة من الخلفاء إلا ورثاه الشعراء ، وصوروا جزع الأمة الإسلامية لفقده ، فهو الذى أعز الله به الإسلام ، وهو الذى رعى حقوق المسلمين ، ومع هذا فهو مطيع

---

(١) ديوان بشار : ١ / ٢٥٤ .

لله مقتد برسوله الصادق الأمين ، ولهذا حق للإسلام والمسلمين أن يحزنوا لفراق هذا الرجل العظيم .

ونفذ الشاعر العباسي إلى معان جديدة في الرثاء ، وأبدع في وصف أهوال الموت ، وما يحل بالميت من ألم وضيق ، والمفقود في مراثي هؤلاء لن ينسى بل ستظل ذكراه الحميدة محفورة بالقلوب ، وهو إن فارق الدنيا فأعماله وأقواله خالدة لن تبلى مع مرور الأيام .

ومرة أخرى يهمنا من رثاء الخلفاء والقادة ما ظهرت عليه مسحة الاسلام من تجلد على المصيبة ، وتضرع إلى الله بأن يسكن المفقود فسيح جناته ، ويهمنا أيضا في الرثاء وصف أعمال المفقود الجليلة لخدمة الإسلام من قتال ضد أعدائه ، أو عدل بين رعيته أو تطبيق لتعاليم الإسلام السمحاء .
والصلة بين الشاعر ومن يرثيه كانت قوية أيام حياته ، وكان كل منهما يكن للآخر الاحترام والاعجاب والتقدير ، فكان من الوفاء أن يعبر الشاعر عن حزنه لفراق الممدوح ، وكان لزاما عليه أن يعدد صفاته ومزاياه ، ويثير المشاعر لتشاركه في أحزانه على هذا الخليفة أو الوزير أو القائد ، ولذلك نجد العاطفة الصادقة ظاهرة في الرثاء غالباً ، على عكس العاطفة في المديح التي تشوبها المجاملة ، ويدخلها الرياء .

والروائع في رثاء الخلفاء والوزراء والقواد كثيرة ، وإذا كنا في الأغراض السابقة قد ذكرنا نماذج الإعلام الشعراء ، فلا بد هنا من إيراد نماذج أخرى لشعراء لم يبلغوا من الشهرة ما بلغه هؤلاء الأعلام .
ولنستمع إلى الحسين بن الضحاك (١) وهو يرثي الأمين بقوله :

هو الجبل الذى هوت المعالي ... لهدته وريع الصالحونا

---

(١) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي ، من مواليهم أو هو منهم ، وهو المعروف بالخليع ، أبو علي : شاعر من ندماء الخلفاء ، قيل أصله من خراسان . ولد ونشأ في البصرة ، وكانت ولادته سنة ١٦٢ هـ ، اتصل بالأمين العباسي ونادمه ومدحه ولما ظفر المأمون ، خافه الخليع ، فانصرف الى البصرة حتى صارت الخلافة للمعتصم فعاد ومدحه ومدح الواثق . كان يلقب بالأشقر ، وأبو نواس متهم بأخذ معانيه في الخمر ، شعره رقيق عذب . توفي ببغداد سنة ٢٥٠ هـ وانظر في ترجمته وأشعاره : الأغاني : ٦/١٦٥ ، ووفيات الأعيان : ١/١٥٤ ، وتاريخ بغداد : ٨/٥٤ ، والوافي : ١٠/١٠٢ ، والديارات : ٢٢ ، واشعار الخليع لعبد الستار فراج ، والاعلام : ٢/٢٥٨ .

ستندب بعدك الدنيا جواراً ... وتندب بعدك الدين المصونا
فقد ذهبت بشاشة كل شيء ... وعاد الدين مطروحاً مهينا
تعقد عز متصل بكسرى ... وملته وذلّ المسلمونا (١)

ويرثي علي بن الجهم عبد الله بن طاهر ، ويرى أنه ركن من أركان الإسلام قد وهى ، فاستباح الأعداء حمى الإسلام :

أى ركن وهى من الإسلام ... أى يوم هنى على الأيام
جل رزء الأمير عن كل رزء ... أدركته خواطر الأوهام
سلبتنا الأيام ظلاً ظليلا ... وأباحت حمى عزيز المرام (٢)

أما أبو تمام فيبدع في رثاء محمد الطوسي ، ويصور عظم المصيبة ، ويبدو صدق الشاعر في عاطفته ، وتفاعله مع إحساسه العميق بالحزن ، لذلك فهو يثير الحماسة والأسى بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ
توفيت الآمال بعد محمد ... وأصبح في شغل عن السّفر السّفرُ
ألا في سبيل الله من عطلت له ... فجاج سبيل الله وانثغر الثغرُ
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففي بأسه شطر وفي جوده شطرُ
عليك سلام الله وقفا فانني ... رأيت الكريم الحر ليس له عمرُ (٣)

وعاطفة أبي تمام الدينية قوية في أكثر مراثيه ومدائحه ، وربما كان صدق العاطفة لديه سببا في إبداعه وعظمته في تصوير بطولات المسلمين ومعاركهم ، ذلك التصوير الذى يشحذ العزائم إلى النظر في سيرة هؤلاء القادة ، وما سجلوه من صفحات مشرقة في تاريخ المسلمين .

ويظهر نوع جديد من الرثاء في هذا العصر وهو رثاء المدن التي أصابتها الكوارث ، أو حل بها الدمار ، وقد بكى كثير من الشعراء تلك المدن التي أصابها

---

(١) أشعار الغليع : ١٠٨
(٢) الديوان : ١٨٢ .
(٣) الديوان (طبعة بيروت) : ٣٣٠

الهلاك ، ووصفوا عزها السابق ومجدها التليد ، ثم صوروا ما حل بها من خـــراب وحاولوا تعليل ذلك بما يعتقدون ، وهذه أبيات قالها إسحاق الخريمي (١) في فتنة بغداد ، وهذه الأبيات قد تتصل بالرثاء الإسلامي ، لأن الشاعر جعل أســـباب الدمار تلك المنكرات والآثام التي انتشرت في هذه المدينة العامرة ، فحل عليهـــا عقاب الله ، وتحولت إلى خراب ، ومن هذه القصيدة قوله :

يا بؤس بغداد دار مملكـــة ... دارت على أهلها دوائرهـــا
أمهلها الله ثم عاقبهـــــا ... لما أحاطت بها كبائرهـــا
رقّ بها الدين ، واستخف بذى الـــ ... ـفضل وعزّ الرجال فاجرهـــا
وصار رب الجيران فاســـقهم ... وابتز أمر الدروب شاطرهـــا
يحرق هذا وذاك يهدمهـــا ... ويشتفي بالنهاب داعرهـــا (٢)

وهكذا فالرثاء الإسلامي غرض أجاد فيه شعراء العصر العباسي الأول ، وأبرزوا في قصائدهم المعاني الإسلامية ، من صبر على المصائب ، وتوكل على الله وتضرع إليه بطلب المغفرة والرضوان ، ووضحوا في مراثيهم فضائل المفقود وصفاته الحميدة من ورع وتقوى وحرص على مصالح المسلمين وبطولة في سبيل الذب عن حياض الإسلام .

---

(١) هو أبو يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي ، كان ولاؤه في غطفان ، ولزم عثمان بن خريم الغطفاني فنسب اليه ، واكثر مدائحه فيه .
تألق نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، وفي أشعاره ما يدل على أنه لم يكن ماجنا ولا زنديقا . فقد احدى عينيه مبكرا ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنّ وتوفي سنة ٢١٤ هـ . انظر في ترجمته وأخباره :
طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ ، والشعر والشعراء : ٨٢٩ ، وماهد التنصيص : ١/٢٥٢ ، وعيون الأخبار : ٣/٢٣٩ ، والبيان والتبيين : ١/١١ ، والورقة : ١٠٢ ، وتاريخ بغداد : ٦/٣٢٦ ، والطبرى : ٦/٤٥٨ .

(٢) الطبرى : ١٠/١٧٦ .

وكانت عواطف الشعراء مملوءة بالصدق والمشاعر العميقة نحو هذا الرجل الذى ذهب دون رجعة ، ويحس القارئ في هذه المراثي التي تحدثنا عنها امتزاج عاطفة الشاعر بما ينظمه من أبيات .

وأسلوب الرثاء رقيق في الغالب ، ولكنه يميل إلى القوة والجزالة أحياناً ، وذلك عندما يفتخر الشاعر بأعمال المفقود أو صفاته .
وحظ الرثاء من التطور كان محدوداً في إبداع الشاعر العباسي في وصف أهوال الموت وساعات الاحتضار ، وإجادته في بيان منزلة المرثي الذى فقد الكرم والجود بوفاته والشاعر العباسي قد أجاد في هذه المعاني اكثر من إجادة من سبقوه .

وقد راعيت الاختصار في الحديث عن الرثاء ، وسبب ذلك هو التشابه الكبير بينه وبين المديح من حيث المعاني ، إذ لا فرق بين الغرضين إلا أن المديح مديح للحي والرثاء مديح للميت كما يسميه بعض الأدباء . ونلاحظ تشابه المعاني الإسلامية في المديح والرثاء تشابهاً كبيراً ، إلا أن هذه المعاني بصيغة الحال في المديح وبصيغة الماضي في الرثاء .

****

الزهـد والمواعـظ

الزهد فن جديد من فنون الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول ، تضافرت أسباب كثيرة على ظهوره واتساعه ، وقد أجمع دارسو[1] الأدب في هذه الفترة على أن الزهد غرض جديد من الأغراض الشعرية التي جاء بها الشاعر العباسي ضمن ما جاء به من تجديد وتطوير لأغراض الشعر عامة . وقد سبق الحديث عن أغراض الشعر الإسلامي التقليدية في هذا العصر من الهيات ومديح ورثاء وهجاء ، تلك الأغراض التي نظم فيها الشعراء الأقدمون ، ثم جاء الشاعر العباسي وزاد عليها أو نقص ، واتضح لنا خلال دراستنا لتلك الأغراض ما يدخل في الاتجاه الإسلامي منها .

وعند البحث عن أسباب ظهور هذا الغرض الجديد من أغراض الشعر العباسي لا بد من إلقاء نظرة سريعة على المجتمع العباسي تصور لنا الظروف التي نشأ بسببها الزهد الإسلامي ، ذلك لأن الشعر غالبا صدى لعادات المجتمع وتقاليده ، وصورة يرسم الشعراء فيها ما يجرى في حياتهم وحياة معاصريهم من أحداث .
يقول أنيس المقدسي[2] : " في كل عصر وفي كل قطر إذا كثرت أسباب الغنى والترف نشأ في المجتمع البشرى مجريان متطرفان : الأول مجرى العبث والخلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتقشف " .

وقد أفاضت كتب الأدب والتاريخ في وصف الثراء والترف الذى وصل إليه مجتمع العباسيين ، فقد وصلت الدولة أوج قوتها وعظمتها ، فكثرت لذلك الأموال إلى حد بعيد وامتلأت خزائن الدولة بملايين الدنانير ، ونعجب أحياناً حينما نسمع بعض الأرقام عن دخل الدولة في عهد الرشيد أو المأمون وغيرهما .

---

(١) انظر في نشأة الزهد في العصر العباسي :
العصر العباسي الأول لشوقي ضيف : ٣٩٩ ، والآداب العربية في العصر العباسي لمحمد عبد المنعم خفاجي : ٢٠٢ ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى لمحمد مصطفى هداره : ٧٥ ، والشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى لأحمد الجوارى : ٢٤٨ ، وتاريخ الشعر العربي لنجيب البهبيتي : ٣٧٥ .

(٢) امراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٤٩ .

وكان الخلفاء والوزراء والقواد وكبار رجالات الدولة ينثرون الأموال بدون حساب على الشعراء والمغنين والمؤلفين والمترجمين والأطباء وكل شخص برز في عمل من الأعمال ، أو اشتهر بمهنة من المهن ، ومع كثرة الأموال وتدفقها على الناس كانت الأسعار رخيصة إلى حد قد لا نصدقه في عصرنا الحاضر ، وفي كتب التاريخ ما يثير العجب عن هذه الأسعار ، ومع كثرة الأموال ونثرها على الطبقات المختلفة حدث امتزاج العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى ، وكان امتزاجا جنسيا وثقافيا وسياسيا ، وتفاعلت هذه الأجناس المختلفة في عناصرها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها على خلق حياة جديدة في المجتمع العباسي .

وتوجد صورتان لهذا المجتمع ، ولكل منهما مظاهرها ، أما الصورة الأولى فهي : انتشار الغناء ، وكثرة الجواري وادمان الناس على شرب الخمر ، ووجدت الحربة الفكرية وكثرت الملل والنحل ، وانتشرت الزندقة ، وفشا الالحاد ، ووجد أصحاب الأهواء المنحرفة والشهوات الجامحة وما يتمنونه ، وانغمس المجتمع العباسي في الترف ، وحرص الناس على جمع المال ، وافتنوا في زخرفة الحياة ، فكثرت المطاعم والمشارب ، وارتفعت القصور الشاهقة المزركشة ، وتعددت مجالس اللهو والخمر والسمر ، وتعانقت الكؤوس وصدحت المغنيات بأعذب الألحان ، ونُسِيَت لذلك الدار الآخرة ، وأصبح الموت والجزاء خيالين لا وجود لهما في حياة العباسيين .

تلك صورة تمثلها طبقة من طبقات المجتمع ، جمعت بين الجد واللهو ، وكان حظها من اللهو كبيراً ، ونصيبها من الجد قليلا .

أما الصورة الثانية فهي صورة وقفت أمام هذا التيار الجارف من الاقبال على الدنيا ومتاعها ، وإذا كانت قد وجدت طائفة همها إدمان الخمر وسماع الغناء ، وجمع الأموال واعتناق المذاهب المنحرفة فقد وجدت طوائف أخرى ، تمثل عامة الناس وسواد الشعب ، طوائف زهدت في الدنيا وأقبلت على طاعة الله وعبادته ، وأنكرت على المنحرفين فسوقهم وغرورهم بمتاع الدنيا الزائل ، ودأبت على إلقاء المواعظ والأحاديث الدينية ناهية في مواعظها عن الاستسلام لمظاهر الحياة وبهرجها ، محذرة من ساعة يندم فيها كل مفرط ، وموضحة أن الموت قريب وأن هذه الزخارف الدنيوية لن تبقى .

ونشأت بسبب ذلك حركة الزهد والتنسك ، فتزهد كثير من الناس ، واعتزلوا الدنيا وتفرغوا لعبادة الله ، وانبرت طائفة من الزهاد تعظ الناس ، وتزهدهم في متاع الدنيا ، تلك الحياة التي لا بد أن ينهيها الموت الذى لا يبقي على أحد ، وصارت تحذرهم من يوم الجزاء والحساب ، ذلك الموقف العظيم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

وانتشر الوعاظ والمحدثون والنساك في مساجد بغداد والكوفة والبصرة ، والتفت حولهم طائفة كبيرة من الناس ، وكثرت حلقات الدرس والوعظ والارشاد ، وبرز عدد من الوعاظ والمحدثين المشهورين أمثال : مالك بن دينار ، وسفيان ابن عيينه ، وسفيان الثورى ، والفضيل بن عياض ، وغيرهم ، وأصبح هؤلاء ينشدون الأشعار في مواعظهم ويرددون التحذير من مباهج الدنيا ، ويحثون على العمل الصالح الذى يبقى ذخراً ليوم عظيم .

وعلى هذا فقد كان انتشار الترف واللهو والمجون والزندقة في العصر العباسي سبباً مباشراً في ظهور حركة الزهد وكثرة الزهاد والشعراء الذين نظموا قصائدهم مزهدين في الدنيا ، وآمرين بعمل الصالحات ، وكانت حركة الزهد التي نشأت في العصر العباسي الأول بمثابة مقدمات لظهور التصوف الاسلامي في العصر العباسي الثاني .

ومن الممكن إضافة أسباب أخرى لنشأة الزهد في العصر العباسي ، فلم تكن الحياة الاجتماعية فيه هي السبب الوحيد لظهور هذا التيار الجديد ، بل تضاف إلى ذلك عوامل سياسية واقتصادية وفي ذلك يقول محمد هداره : " إن الدافع الديني للزهد ليس الدافع الوحيد ، بل لقد اختلط بعوامل سياسية واجتماعية ، وربما اقتصادية أيضا "(١) ، ويقول مشتا أن تيار المجون كان سببا في ظهور تيار الزهد : " إن وجود تيار الزهد المضاد لتيار المجون منطق طبيعي لتطور الأشياء "(٢) .

وخلاصة ما سبق أن الزهد فن جديد لم يعرفه الشعر العربي معرفة حقيقية إلا في العصر العباسي الأول وما بعده ، وكان ظهور هذا الفن نتيجة لأسباب متعددة أهمها تيار المجون والترف الذى سيطر على المجتمع العباسي ، وتغلغل في حياة طبقة من طبقاته .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى : ٢٨٨ .
(٢) المرجع السابق : ٢٩٠ .

ولكن ما هو الزهد ؟ وما المراد بشعر الزهد ؟

يقال : زهد في الشيء ، أي : رغب عنه وانصرف الى غيره ، ويقال : زهّد في الشيء أي : رغّب في الانصراف عنه ، وحث على عدم الاهتمام به .

أما الزهاد ، فهم الذين زهدوا في الدنيا ومتاعها من مال وقصور ومطاعم ومشارب وعاشوا على الكفاف ، وانصرفوا إلى عبادة الله بالتنسك في المساجد والاعتكاف فيها ، وقد بالغ بعض الزهاد في الانصراف عن الدنيا ، فانعزل عن الحياة والناس ، وترك العمل ووقف حياته على العبادة ، ونسي أن الله أمر بالعمل والكسب الحلال ، وتجاهل أن الله أحل للإنسان التمتع بما رزقه من الطيبات دون إسراف ولا تبذير ، ويضاف إلى هذا أن الدولة الإسلامية بحاجة إلى رجال يعملون لاصلاحها ، ويتعبون من أجل عمارتها ، والعمل والكسب الحلال لا يتنافى مع العبادة والطاعة . وعلى الانسان أن يكون في حياته وسطا لا إفراط ولا تفريط كما أمر بذلك الإسلام الحنيف .

وشعر الزهد هو الذى يصور هوان الدنيا وما فيها من نعيم ، ويحث على عبادة الله وطاعته ، وينعى على هؤلاء المخدوعين انصرافهم إلى دنياهم واهمالهم لآخرتهم ، ويعذر بأن الدنيا قصيرة مهما طالت ، وأن العمر سنوات معدودة ثم تنتهي . والموت مصير لكل إنسان ، فماذا أعددنا لما بعد الموت ؟ وماذا عملنا لدار البقاء ؟

وشعر الزهد هو الذى يصور شهوات النفس الجامحة التي تنحرف بالانسان عن الطريق المستقيم ، وتهوى به إلى مهاوى الردى ، فان طاوع شهواته ضل ، وإذا كبح جماحها استقام وسلك طريق الصالحين ، والزهد هو الذى يبين أن الدنيا لا تساوى سعينا الملح وراءها ، ولا تستأهل ذهاب أعمارنا في سبيل جمعها والسعي الحثيث لنيل ما فيها من مناصب وأموال .

إذا فليس المراد بالزهد أن ينعزل المسلم عن الحياة ، وينطوى على نفسه في ركن من أركان المسجد ليصلي ويصوم ، وليس المقصود بأشعار الزهد تلك التي تنفر من الدنيا وتأمر بالقعود عن العمل ، وتنظر إلى الحياة نظرة مملوءة بالتشاؤم والكآبة .

وإذا كان الزهد غرضاً جديداً من أغراض الشعر العباسي فلا يعني هذا عدم وجوده قبل العصر العباسي ، فقد وجد في الشعر الأموى ما يدل على معاني الزهد ، ولكن هذه المعاني كانت مجرد نظرات عابرة في بيت أو بيتين وفي وسط

قصيدة الرثاء أو المديح ، ولا يعطيه الشاعر أى اهتمام . لذلك فلا يمكن القول بأن الزهد وجد في الشعر الأموى ، بل يمكن القول بأنه وجد في العصر العباسي ، واتخذ شكلاً جديداً ، ونظمت فيه قصائد كاملة ، بل ونظم في الزهد شعراء عرفوا باللهو والمجون .

والزهد والوعظ غرضان متشابهان ، أحدهما مكمل للآخر ، فالواعظ يزهد في الدنيا ، والزاهد يخلط زهده بمواعظ ونصائح أخرى ، والشعراء الذين نظموا في الزهد هم الذين نظموا في المواعظ أيضا ، ولذلك جمعت بينهما في فصل واحد ، ودرستهما كما يدرس الباحث غرضاً واحدا .
وما خلفه شعراء العصر العباسي الأول من أشعار الزهد والمواعظ كثير جدا ، وتحفل به دواوين الشعراء وكتب الأدب ، ويندر خلو ديوان شاعر من الزهد سواء كانت قصائد كاملة أم أبيات ضمن غرض آخر .

وقد نظم في الزهد والوعظ عدد كبير من شعراء العصر العباسي أمثال :
أبي العتاهية ومحمود الوراق ومحمد بن كناسه وعبدالله بن المبارك والخليل بن أحمد ومحمد بن أبي العتاهية والفضيل بن عياض وغيرهم ، وأغلب شعراء الزهد هم من الذين لم يتكسبوا بشعرهم ، وبالتالي لم يكن لهم من الشهرة ما كان لأعلام الشعراء ومشهوريهم . ويختلف ما قاله الشعراء في الزهد من حيث الكثرة والقلة ، والأسلوب الذى اتبعه كل منهم في عرضه لمعاني الزهد والوعظ .

وقبل أن نسرد الشعراء الذين نظموا أشعار الزهد ونستعرض معانيهم لا بد لنا من الوقوف طويلا عند زهد أبي العتاهية وزهد أبي نواس ، أما الوقوف عند زهد أبي العتاهية فلكثرة ما نظمه في هذا المجال من جهة ، وللشك الذى ألحقه به القدماء والمعاصرون من جهة ثانية ، أما وقوفنا عند زهد أبي نواس ، فلأن الشاعر شاعر لهو وخمر ، فكيف ورد الزهد في شعره ؟ وهل كانت حياته تجمع بين النقيضين ؟
وأمر أبي نواس قد يكون سهلا ، لأنه عرف بالمجون ، واشتهر بالخلاعة ، وتعدى حدود الخلق والدين ، واكثر شعره يصور هذا الاتجاه من خمريات ومجون وهجاء فاحش وغزل بالمذكر ، مع احتمال إضافة كثير من أشعار المجون إليه لشهرته به (١) ، كما أن

---

(١) العصر العباسي الأول : ٢٣٥ .

حياته الماجنة كانت مطابقة لشعره ، فهو لا يتعدى مجالس اللهو ، ولا يفارق مقاصف الخمور والغناء ، مع ما يجرى في هذه المجالس من اختلاط بالجوارى والغلمان وما يجرى بينهم من مداعبات ومجون .

وقد صور أبو نواس حياته اللاهية التي كان يعيشها أصدق تصوير ، ورسم صوراً لمجالس اللهو والخمور ، وأبدع في وصف دنان الخمر وسقاتها وندمائها ، وفصّل ما يجرى في هذه المجالس من غزل ومداعبات تصل الى حد الافحاش وتجاوز حدود الدين ، وجاهر أبو نواس في مجونه ، وأعلن ثورته على العرف والخلق والدين ، وهيأ له العصر العباسي كل الأسباب ، وفتح له الباب على مصراعيه ليفعل ما يشاء ويقول ما يشاء ، دون أن يجد من يردعه أو ينهاه ، بل وجد من يؤيده ويناديه حتى من هؤلاء الذين يفترض فيهم الورع والتقى ، ومضى في أشعاره يصور تلك الحياة الماجنة المستهترة ، وهو يجاهر بالمعاصي ويقول بصراحة تامة :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر (١)

ويقول :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها ... أجدته حمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة ... في كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من يدها خمراً ، ومن فمها ... خمراً فما لك من سكرين من بد (٢)

ويعلن إعلانا صريحا ارتكابه للمعاصي بقوله :

ترى عندنا ما يسخط الله كله ... من العمل المردى الفتى ماعدا الشركا (٣)

وغير هذا كثير مما قاله وفعله أبو نواس من التهتك والمجاهرة بارتكاب الكبائر .

---

(١) ديوان أبي نواس : ١٠٨ (٢) الديوان : ٢٦٥ .
(٣) الديوان : ٢٥٠

وكان إلى جانب هذا المجون في شعر أبي نواس جانب آخر ، وهو الجانب الجدى الزاهد ، فنقرأ في شعره تلك الإلهيات الرائعة والمناجاة الخاشعة التي أوردنا أبياتها في الحديث عن الإلهيات .

ونجد في ديوان أبي نواس روائع في الزهد والحث على التوبة ، والتحذير من غرور الدنيا ، وأن الموت هو المصير المحتوم ، فلماذا العبث والتجاهل لهذه النهاية التي لا بد منها ؟

وإذا كنا نقرأ لأبي نواس أشعاراً كثيرة في الخمريات والمجون والمجاهرة فإننا نقرأ له أيضا كثيراً من قصائد الزهد والمناجاة الرائعة ، التي بلغ فيها حداً كبيراً من الروعة والإبداع ، واستمع إليه يقول :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك الا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً ... فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم ؟
مالي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلم (١)

ويقول معاتباً نفسه ومحذراً من ارتكاب المعاصي وفعل الموبقات :

أفنيتَ عمرك والذنوب تزيد ... والكاتب المحصي عليك شهيد
حتى متى لا ترعوى عن لذة ... وحسابها يوم الحساب شديد
وكأني بك قد أتتك منية ... لا شك أن سبيلها مورود (٢)

ويزهد في الدنيا ومباهجها بقوله :

لا تفرغ النفس من شغل بدنياها ... رأيتها لم ينلها من تمناها
إنا لننفس في دنيا موليـة ... ونحن قد نكتفي منها بأدناها
أنت اللئيم الذى لم تعد همته ... إيثار دنيا إذا نادته لباها
يا راكب الذنب قد شابت مفارقه ... أما تخاف من الايام عقباها ؟ (٣)

---

(١) الديوان : ٦١٨ .
(٢) الديوان : ٦١٩ .
(٣) الديوان : ٦١٣ .

وللشاعر في الزهد والالٰهيات قصائد جياد ، تنبيء عن صدق الندم ، وتحسر على التفريط ، وتشاؤم من عفو الله . وقد نعجب لوجود مثل هذه الأبيات لشاعر وقف حياته وشعره للخمر واللهو والعبث ، فكيف وجدت تلك الزهديات في بحر من المجون والفسق الذى يمتليء به ديوان الشاعر ؟

مما لا شك فيه أن أبا نواس عاش حياة صاخبة باللهو والمجون ، وقضى سنوات طويلة من عمره مترددا على مجالس الخمور والغناء ، وقد صور الشاعر حياته في شعره تصويراً صادقا نحس فيه صدق الشاعر في وصفه للحياة التي كان يعيشها في الواقع .

وأبو نواس ماجن بلا شك ، فاسق بلا ريب ، تعدى حدود الدين وجاهر بارتكاب المعاصي . ولكن هل كان صادقاً في زهده ؟ ولماذا نجد الزهد والمجون مجتمعين في شعره ؟ وهل من الممكن أن يكون ما نسب إليه في الزهد منحولا ؟

في الحقيقة أن أبا نواس صادق في زهده كل الصدق — على الرغم من كثرة مجونه وخمرياته — لأسباب أهمها : تلك الحسرة التي تملأ جوانحه على تفريطه ، وترديده للاستغفار وطلب العفو من الله بالحاح شديد يصل إلى حد اليأس من المغفرة ، وتصويره لعظم ذنوبه ، وأن عفو الله أوسع وأعظم مما ارتكب من خطايا ، والشاعر مع هذا كله يجأر بذنوبه كما يجأر الذبيح متضرعاً ذليلاً إلى أبعد الحدود . وهذا بلا شك يعطينا صورة لرجل قضى عمره في الفسوق ، ثم ندم في آخر حياته ندماً شديدا . هذه ناحية صورتها أبيات زهده والٰهياته .

وهناك ناحية أخرى تقوّي صدق أبي نواس في زهده ، وهي ما ورد في الأغاني (١) من أن أبا نواس تنسك في آخر عمره ، ويقول شوقي ضيف عن أبي نواس " وكانت قد علته شيخوخته فأخذ ينيب إلى ربه ، وينظم أبياتاً في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مرارا "(٢) ويؤيد محمد هداره صدق أبي نواس في زهده بقوله : " إن أبا نواس قال زهدياته في فترات صحوه وتوبته ، وهذا لا يتعارض مع شعره الماجن أبدا "(٣) .

إذاً فأبو نواس قال زهدياته في فترات توبته وتنسكه ، وكان صادق الاحساس فيما نظمه من الزهد ، فكانت روحه تسمو إلى خالقها ، وتحس بعظم خطاياها فتتوجه إلى الله معترفة بالذنب وراجية المغفرة والرضوان .

---

(١) الأغاني : ١٨ / ٢

(٢) العصر العباسي الأول : ٢٢٦

(٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى : ٣١٦ .

ولا تعارض بين مجون أبي نواس وزهده ، ولو فرضنا ـ جدلا ـ كذب أبي نواس في زهده فيكفي أنه أبدع فيها ، وترك لنا أبياتاً تحفل بالمعاني الإسلامية الرائعة من دعاء وتضرع وحث على العمل الصالح قبل فوات الأوان .

ويطول وقوفنا عند أبي العتاهية : " فهو أبو الشعر الديني في الأدب العربي بحق " وهو شاعر الزهد الأول في الأدب العربي ، وقد امتلأ ديوانه بقصائد الزهد في الدنيا واحتقار شأنها والتحذير من غرورها ، كما حفلت أشعار ابي العتاهية بتصوير الموت وأهواله ، وتصوير القبور وبشاعتها ، وفي القبور يتساوى الأغنياء والفقراء . ويكرر أبو العتاهية هذه المواعظ بأساليب مختلفة ، يتفنن في اختيار ألفاظها وأوزانها ، وتتميز تلك المواعظ بالسهولة والبساطة ، حيث يدركها العلماء والعامة على السواء .

وقد طبع الآباء اليسوعيون ديوانه عام ١٨٨٦م وهي طبعة محرفة حذف فيها كثير من القصائد التي يذكر فيها رسول الله (ص) ثم حقق الديوان وجمعه شكرى فيصل ، وسيكون الاعتماد على ديوانه الأخير .
وأشعار الزهد والمواعظ تكون ثلاثة أرباع ديوانه تقريباً ، وفي هذه القصائد الكثيرة يردد أبو العتاهية احتقار الدنيا ، ويصور هول الموت ووحشة القبر ، ويحذر من مباهج الدنيا الخداعة .

وقد أحاط القدماء والمعاصرون زهد أبي العتاهية بالشك والاتهام ، وقد حوا في صدق عواطفه الدينية ، واتهموه بالنفاق في زهده . فهل كان أبو العتاهية صادقاً فيما يردده من أشعار الزهد ؟ وما هي قيمة هذه الثروة الكبيرة من الأشعار ؟

ولد أبو العتاهية سنة ١٣٠ هـ ، وعاش أول حياته في أسرة فقيرة ، وكان مغموراً يرجع بالولاء إلى عنزه ، تفتقت مواهبه الشعرية مبكرة ، وانخرط أول أمره في سلك المخنثين (١) ، واتصل ببيئات المجان أمثال مطيع بن إياس ووالبة بن الحباب ثم اشتهر أمره ، فمدح الهادى والمهدى والرشيد والمأمون ، ونال عطاياهم وكثرت ثروته ، وكان الرشيد يجرى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم (٢) عدا الجوائز والهدايا

---

(١) الأغاني : ٤/ ٧
(٢) الأغاني : ٤/ ٦٣ .

واستمر في حياة اللهو والمجون ، ونظم أشعاراً جيدة في المديح والغزل ، ثم تحول إلى الزهد ، ولبس الصوف سنة ١٨٠ هـ عندما سكن الرشيد الرقة ، وصار ينظم قصائد الزهد والوعظ ويردد كثيراً من معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وما أخذه عن الثقافات المختلفة . وامتنع عن الغزل حتى حبسه الرشيد ليعود إلى النظم في الأغراض التقليدية ، ولكن أبا العتاهية استعطفه ، فرق له ، وأطلق سراحه . واستمر الشاعر يردد أشعاره الزاهدة حتى توفي سنة ٢١٠ هـ .

هذه نبذة مختصرة عن حياة شاعر الزهد العربي ، تعطينا فكرة موجزة عن الانتقال من المجون إلى الزهد في حياة ابي العتاهية ، ونستطيع على ضوء ذلك أن نناقش ما قيل من شك حول زهد الشاعر .

والشك في زهد أبي العتاهية ليس جديداً ، فقد اتهمه القدماء بالنفاق فيما يظهره من الزهد ، وقد هتف به منصور بن عمار في مواعظه وقال : إنه زنديق مستدلا بأنه يذكر الموت ولا يذكر الجنة والنار (١) ويظن ابن المعتز (٢) ان أبا العتاهية ثنوي ، يؤمن بأن للعالم آلهين ، آله الخير وآله الشر ، ويتهمه سلم الخاسر بالنفاق في زهده بقوله:

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد (٣)

واتهمه كذلك كثير من المعاصرين ، وشكوا في عقيدته ، يقول شوقي ضيف : إنه مزج المانوية بالإسلام ومما يدل على كذب زهده أنه يكتنز الذهب والفضة وكان شحيحاً لا يتصدق بدانق ، وأنه ظل يمدح الرشيد والمأمون بعد تنسكه وينال عطاياهم ، فهو زاهد في الظاهر يطلب الدنيا ومتاعها في الباطن " (٤) ، ويقول خفاجي : " وقد أكثر أبو العتاهية في شعره من الدعوة الى الزهد ، ومع ذلك فقد كان في ثراء عريض " (٥) ، ويرى جرجي زيدان (٦) إنه سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين ، ويؤيدهم أنيس المقدسي بقوله : "إن حياة أبي العتاهية تخالف شعره ، وهذا وجه الضعف في رسالته " (٧) .

وهذه الاتهامات متقاربة في مضمونها ، تجعل الباحث يشك حقاً في عقيدته وصدقه في أشعار الزهد التي يرددها ، ونحن هنا لا نريد الدفاع عن أبي العتاهية ، بل نريد معرفة الحقيقة والوصول إلى حكم عادل مرتكز على سيرته في حياته ومؤيد بالأدلة من شعره .

---

(١) الأغاني : ٤/ ٣٤ . (٢) طبقات الشعراء : ٢٨٨
(٣) معجم الأدباء لياقوت : ٤/ ٢٤٨ . (٤) العصر العباسي الأول : ٢٤٣
(٥) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ٢٠٣
(٦) تاريخ آداب اللغة العربية : ٢/ ٦٨ (٧) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٦٠

أما زندقة أبي العتاهية واتهامه باتباع مذهب الفلاسفة ، فليس هناك ما يثبتهما ولم يذكره ابن النديم في جملة الشعراء الزنادقة ، وكل ما في الأمر أن بعض الذين نظروا في شعره توهموا أنه زنديق يتحرى مذاهب الفلاسفة ، واعتمدوا على بضعة أبيات لا تعدو أن تكون مبالغة شعرية تجرى على لسان المؤمن لايضاح معنى شعري، ولو افترضنا صحة هذه الأبيات فان هناك قصائد كاملة تثبت صحة عقيدته ودعوته إلى الله سبحانه .

والاتهام بالزندقة أمر شائع في العصر العباسي ، ولم يسلم من هذا الاتهام الا قليل ، ولو صدقنا جميع التهم بالزندقة لوجدنا أن أغلب شعراء العصر العباسي من الزنادقة والملحدين .

والذين يتهمونه بالزندقة ويشكون في زهده ، يعتمدون على أسباب منها :
سيرته الأولى الماجنة ، وحرصه على جمع المال ، والثالث أن يأسه من حبه لعتبه جعله يتزهد في أشعاره .

أما مجونه في أول حياته فليس غريباً أن يتحول إنسان من المجون إلى التدين بل إن تحوله الى الزهد أمر عادي لا يتعدى كونه رد فعل لحياته الأولى ، وهو في حياته الماجنة كان ميّالاً إلى عدم الاسراف في الشهوات ، ولم يرخ العنان لنفسه كبقية زملائه المجان .(١)

وحرص أبي العتاهية على جمع المال بعد تحوله الى الزهد قد يكون دليلا على كذبه في زهده ، ولكن العوامل المختلفة جعلته يحرص على كنز الأموال ، وأولها : أنه عاش في أول حياته فقيراً وأصبح الفقر شبحاً يخيفه ، وثانيها أنه بلغ الخمسين من عمره وفي هذه السن يزداد حرص الانسان على الدنيا ، وأبو العتاهية مع جمعه للمال وحرصه على الدنيا كان لا يسرف ولا يبذر ، وكان مقتصداً في مطعمه وشربه ، ولم ينصرف الى لذائذ الدنيا ، ولعل جمعه للمال كان بسبب خوفه من الفقر ، وبلوغه الخمسين من عمره .

أما من قال إن زهده كان بسبب يأسه من عتبه فقد نظر إلى الحادثة نظرة قريبة ولو تعمق لوجد أن زهده بعد يأسه من حبه دليل على صحة هذا الزهد ، وذلك لأن الشاعر عرف مرارة اليأس، واقتنع بأن الدنيا دار شقاء ، لا يستطيع الإنسان أن يحقق فيها ما يتمناه ، وأن جميع الأماني تتحقق في الدار الآخرة بعد العمل الصالح في الدنيا .

---

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٥٣ .

ومديحه للخلفاء بعد تنسكه وزهده لا ينفي الصدق فيما فعله ، فقد يكون الشاعر مدح الخلفاء مجاملة لهم ، ورغبة في نيل رضاهم أو خوفا من سلطانهم .

وقد يقول قائل : ان أبا العتاهية نظم أشعارا كثيرة في الزهد لعجزه عن النظم في الأغراض التقليدية ، وهذا قول تكذبه أشعار أبي العتاهية في أول حياته ، لأن الشاعر مدح الخلفاء فأجاد ، ونظم في الغزل والهجاء فأبدع ، وكيف يكون عاجزاً عن النظم في الأغراض التقليدية وقد أمضى ثلاثين سنة وهو يمدح ويتغزل ويهجو ، وذلك قبل انصرافه الى الزهد .

ولا نريد بما قلناه رفع الشك عن أبي العتاهية ، ولكنها محاولة للبحث عن الأسباب الحقيقية لزهده ، وقد تكون مسألة جمعه للمال في آخر حياته هي النقطة الوحيدة التي تضعف عامل الصدق في زهده .

ولو بحثنا عن الأسباب التي دفعت بأبي العتاهية الى الزهد لوجدنا أن استعداده الفطري الديني كان أهم هذه الأسباب ، وقد استيقظ هذا الاستعداد الفطري في نفسه بعد حياة حافلة بالمجون ، ويضاف إلى ذلك فقره في أول حياته وضعف نسبه ، وقد يكون أبو العتاهية متأثراً بما انتشر في عصره من حركة الوعاظ والقصاص .

وشاعرنا كان معتدلا في مجونه في أول حياته متزهدا في آخرها ، انصرف عن الغزل والخمر ، وانكب على أشعار الزهد والوعظ يرددها ، ويورد المعاني الاسلامية ويتحدث عن الموت والغنى والفقر ، وذلك بأسلوب المؤمن الذى تأثر بما حوله من مذاهب ، واختط لنفسه طريقا آخر يغاير طريق زملائه المجان ، ومع ذلك لم يكن زنديقا ولا متبعا لمذاهب الفلاسفة والمتكلمين ، لأن شعره واضح سهل ، ولا أثر للفلسفة عليه ، بل هو أقرب إلى مستوى العامة منه إلى غيرهم .

ولم يكن زهد أبي العتاهية انقطاعا عن الدنيا وحطامها ، بل كان تقبيحا لمسلك مترفيها وانذاراً بسوء مصيرها ، وتلبية لاستعداد فطرى استيقظ في نفسه ، فألهمه روائع الزهد والمواعظ .

وأغلب الظن أن أبا العتاهية صادق في زهده ، ومستقيم في عقيدته على الرغم مما أوردناه من اتهامات ، وتلك القصائد الكثيرة في الزهد لا تنبع إلا من قلب صادق ، ومهما حاول الشاعر أن يخفي عاطفته فلا بد أن تتضح ، ولو استطاع أن يخفيها في قصيدة أو اثنتين ما استطاع ذلك في اكثر شعره .

يقول محمد هداره : " إن أبا العتاهية لم يكن زنديقا متخفيا في ثياب الزهـــاد " (١) واذا كان أبو العتاهية قد انحرف في أول حياته إلى المجون ، وأصاب عقيدته شيء من التردد في بيت أو بضعة أبيات من شعره فانه - مع هذا - رائد الزهـد في الأدب العربي بلا منازع ، وقد خلف لنا ثروة عظيمة ستبقى على مـرّ الأجيال تنبيها للغافلين وايقاظا للمنغمسين في نعيم الدنيـا .

واذا كنا نأخذ شيئا على أبي العتاهية فاننا نأخذ عليه التشاؤم في زهـــده ذلك التشاؤم الذي يحط من قيمة الحياة ، ويأمر بالبطالة وينهي عن العمل وينصح بالانزواء عن المجتمع والحيـاة . وقد خالف أبو العتاهية في هذا نظرية الاسلام التي تأمر بالعمل وتحث على السعي في أرض الله الواسعة للحصول على الرزق الحلال ، وتبيح للمسلم التمتع بالطيبات من الحلال دون إفراط ولا تفريـط .

وتشاؤم أبي العتاهية يتضح في كثير من قصائده ، واستمع اليه يقول :

لـدوا للمـوت وابنـوا للخـراب فكلكـم يصـير إلى تبـــاب
لمـن نبني ونحن إلى تـــراب نصـير كما خلقنا من تـراب ؟ (٢)

ومعنى هذا أن نتوقف عن العمل والبناء لأن الموت نهاية لحياتنا والدمار نهاية ما نقوم بـه من بنـاء .

ويناقض أبو نواس أبا العتاهية ، فأبو نواس يرى أن الدنيا كأس من الخمر ووجه مليح وصوت عذب ، وماعدا هذا فلا قيمة له .

ونأخذ على أبي العتاهية شيئا آخر هو ترداده لمعان لا تتغير ، فهو يحذر من غرور الدنيا ، ويصف الموت والقبر ، ولا شيء غير هذين يرددهما بصور مختلفـة وقـواف متعددة ، ومع هذا فقصائد أبي العتاهية لا تمـلّ ، لأنه طبعها بطابع السـهولة والوضوح ، وأضفى عليها من طبعه نوعا من التشويق واللذة ، لأنه شاعر مطبوع يجـرى الشعر على لسانه دون تكلف أو عنـاء .

وقد طال حديثنا عن أبي نواس وأبي العتاهية حتى أوشكنا أن ننسى شـــعراء آخرين وقفوا أكثر شعرهم على الزهد والمواعظ أمثال : محمود الوراق وعبدالله بن المبارك ومحمد بن كناسة وغيرهم ، وأشعار الزهد موجودة في أكثر دواوين الشعراء مع اختـــلاف في الكم والكيف .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى : ٣٠١ .
(٢) ديوان أبي العتاهية : ٣٤ .

وقد تناول شعراء الزهد في العصر العباسي كثيراً من المعاني بطرق مختلفة وأساليب عديدة ، وصوروا الدنيا على أنها دار ممر لدار مقر ، وأن نعيمها لا يدوم ، فالموت يقضي على كل لذة ، ويفرق شمل الأحباب ، فلا بد من الاستعداد لما بعده بالعمل الصالح الذى يبقى ذخراً ليوم عظيم ، ولجأ الشعراء إلى الترغيب والترهيب ، فوصفوا الجنة وما فيها من نعيم لا يزول ، وصوروا أهوال يوم القيامة وعذاب النار ، ودعوا إلى العمل الصالح استعداداً لليوم الموعود ، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية وأحاديث الوعاظ منبعاً استقى منه الشعراء أكثر معانيهم في الزهد والوعظ كما ساعدهم على ذلك ما ألموا به من الثقافات المختلفة والحكم التي انتشرت في العصر العباسي .

وكان أبو العتاهية اكثر شعراء عصره اهتماما بالزهد والوعظ ، وقد قضى الثلث الأخير من عمره يردد أناشيد الزهد والوعظ ، وكان يكرر فكرتين :
أولاهما زوال الدنيا وباطلها وغرورها ، والثانية هول الموت ووحشة القبر وبشاعة الفناء يقول أنيس المقدسي : " إن شعر أبي العتاهية يعكس الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر إليها كممر زائل لحياة عليا(١) " ، وكان مدار شعره الانسان ، من حيث سعيه الملّح وراء الدنيا ، يستكثر من الولد ويجمع المال ، ويشيد الدور ويقبل على الشهوات ، ثم ماذا ؟ إنه يموت ويصبح كأنه ما كان ، ويتساوى في التراب مع العبيد والعامة . وهنا يأتي الجانب التعليمي في شعره فهو ينصح إخوانه ويعظهم ، ويوضح لهم النهاية البشعة لدنياهم ، وقد يميل إلى التشاؤم ويجنح الى تصوير الكآبة والملل من الدنيا .
يقول أبو العتاهية في زوال الدنيا :

المرء آفته هوى الدنيا ... والمرء يطغى كلما استغنى
إني رأيت عواقب الدنيا ... فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت في الدنيا وجدّتها ... فإذا جميع جديدها يبلى
ولقد طلبت فلم أجد كرما ... أعلى بصاحبه من التقوى
ولقد مررت على القبور فما ... ميزت بين العبد والمولى (٢)

---

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٢٢
(٢) الديوان : ٩٠

ويطيل الحديث عن الموت وساعاته المحزنة كقوله :

ننافس في الدنيا ونحن نعيبهـــا لقد حذرتناها لعمرى خطوبهـــا
أيا هادم اللذات ما منك مهـرب تحاذر نفسي منك ما سيصيبهـــا
كأني برهطي يحملون جنازتـــي إلى حفرة يُحـــثى عليّ كثيبهـــا
رأيت المنايـا قسّـمت بين أنفس ونفسي سيأتي بعدهن نصيبهـــا (١)

وفي أرجوزته " ذات الأمثال " ينصح بعدم الزيادة على الكفاف بقوله :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما في الأرض لا يغنيكـــا
الفقر فيما جاوز الكفافا من عرف اللّه رجا وخافـــا (٢)

وشعر أبي العتاهية يكذب ما ادعاه منصور بن عمار حين هتف به في مواعظه واتهمه بالزندقة مستدلا بأنه يذكر الموت والفناء ، ولا يذكر الجنة والنار ، ومن يقرأ أشعاره يجد أبا العتاهية يحذر من عذاب النار ، ويرغب في نعيم الجنة من مثل قوله :

أسل عن الدنيا وعن ظلمـــا فان في الجنة ظلا ظليـــل
وان في الجنـة للـــروح والـ ـريحان والراحة والسلسـبيل
من دخل الجنة نال الرضـــا مما تمنى واستطاب المقيـــل (٣)

ويقول في مصير الانسان :

الموت باب وكل الناس داخلـه فليت شعرى بعد الباب ما الدار ؟
الدار جنة خلـد إن عملت بمـا يرضي الاله وإن قصرت فالنـار (٤)

ويستمر أبو العتاهية في ترديد أناشيده العذبة في الزهد والورع ، ويضيف على ذلك من طبعه وعبقريته جمالا وروعة .
وطرق هذا الباب كثيرون من الشعراء ، وأجادوا فيه ، حتى أبو نواس الماجن كانت له روائع في الزهد والوعظ ، وتغلب على زهده روح الخشوع والتضرع والندم ، وهذا أمر مألوف من شاعر ظل يسرح ويمرح عمراً طويلا ثم أحس بالندم والتفريط ، يقول عن الموت :

---

(١) الديوان : ٤٨ (٢) الديوان : ٤٤٦ .
(٣) الديوان : ٢٩٠ (٤) الديوان : ١٤١

فقل لغريب الدار إنك راحل ... إلى منزل نائي المحل سحيق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قراراً فما دنيّاك غير طريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق
عليك بدار لايزال ظلالها ... ولا يتأذى أهلها بمضيق (١)

وفي زيارة القبور عبرة لمن اعتبر :

ألا تأتي القبور صباح يوم ... فتسمع ما تخبرك القبور
فإن سكونها حرك تنادى ... كأن بطون غائبها حضور (٢)

وعلى الانسان أن يعمل صالحا قبل فوات الأوان :

حتى متى يا نفس تغترين بالأمل الكذوب
يا نفس توبي قبل أن ... لا تستطيعي أن تتوبي
والسعي في طلب التقى ... من خير مكسبة الكسوب (٣)

ومحمود الوراق من الشعراء الذين أكثروا من شعر الوعظ والزهد ، وردوا تحقير الدنيا ونعيمها ، فهو ينصح الغافلين ، ويوقظ النائمين الذين تراكمت عليهم الذنوب والخطايا يقول :

يا غافلا ترنو بعيني راقد ... ومُشاهِداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد (٤)

ويصور محمود سعي الناس وراء الدنيا تصويراً طريفا بقوله :

أظهروا للناس دينا ... وعلى الدينار داروا
وله صلوا وصاموا ... وله حجوا وزاروا
لو بدا فوق الثريا ... ولهم ريش لطاروا (٥)

---

(١) الديوان : ٦٢١
(٢) الديوان : ٦١٣
(٣) الديوان : ٦١٦
(٤) عيون الأخبار : ٢/ ٣٧٤
(٥) العقد الفريد : ٣/ ١٧٥

وكان عبد الله بن المبارك(١) من الشعراء الزهاد ، وكان يخرج مع الجيوش الغازية يجاهد ويحمس الجنود ويعظهم ، وقد كتب أبياتا إلى الفضيل بن عياض حينما لازم العبادة بمكة المكرمة وترك الجهاد ، ومن هذه الأبيات قوله :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب جيده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضّبُ
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيبُ (٢)

وينكر ابن المبارك سب الصحابة الكرام ، كما ينكر ضلال بعض الفرق في عصره بقوله :

إني امرؤ ليس في ديني لغامزة ... لين ولست على الاسلام طعانا
فلا أسب أبا بكر ولا عمرا ... ولن أسب معاذ الله عثمانا
ولا أقول علي في السحاب إذاً ... قد قلت والله بهتانا
ولا أقول بقول الجهم إن له ... قولا يضارع أهل الشرك أحيانا (٣)

والنفس أمارة بالسوء ، ولذلك يجب عصيانها ، يقول ابن المبارك في ذلك :

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويخترم العقل إدمانها
يبيع الفتى نفسه في رداه ... وأسلم للنفس عصيانها (٤)

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولاء ، ولد سنة ١١٨ هـ صاحب رحلات كثيرة في طلب العلم ، يعد من كبار الحفاظ في عصره ، وكانت تشد اليه الرحال للنهل من معين علمه ، كان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد ، ويحمس الجنود ، ناسك زاهد ، ألف كتابا عن الجهاد ، وله أشعار في الزهد والوعظ توفي سنة ١٨١ هـ وانظر ترجمته وأخباره :
الأنساب للسمعاني : ١٧٩ ، وصفة الصفوه : ٤/ ١٠٩ ، والنجوم الزاهرة : ٢/ ١٠٣
والورقة لابن الجراح : ١٤ ، وحلية الأولياء : ٨/ ٢٧٩ ، وتاريخ بغداد : ١٠/ ١٥٢

(٢) النجوم الزاهرة : ٢/ ١٠٣
(٣) طبقات الشافعية : ١/ ٢٨٧
(٤) الورقة لابن الجراح : ١٥

أما محمد بن كناسه (١) فانه يرى أن تارك الصلاة لا دين له :

ينبيك عن عيب الفتى ... ترك الصلاة أو الخدينْ
فإذا تهاون بالصلا ... ة فما له في الناس دينْ (٢)

والغيبة أمر مكروه ، والتسامح والمعاملة بالحسنى من الخصال الحميدة ، وفي هذا المعنى يقول الشافعي (٣) رحمه الله :

إذا رمت أن تحيا سليماً من الردى ... ودينك موفور وعرضك صيّنْ
فلا ينطق منك اللسان بسوأة ... فكلك سوءات وللناس ألسنْ
وعيناك إن أبدت إليك معايباً ... فدعها ، وقل يا عين للناس أعينْ
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... ودافع ولكن بالتي هي أحسنْ (٤)

ويدعو صالح بن عبد القدوس (٥) إلى الصبر على النوائب ، والتوكل على الله ، والتضرع إليه في جميع الأحوال ، يقول :

وإذا أصابك نكبة فاصبر لها ... من ذا رأيت مسلّما لا ينكبُ ؟
وإذا رُميتَ من الزمان بريبة ... أو نالكَ الأمر الأشق الأصعبُ
فاضرع لربك إنه أدنى لمن ... يدعوه من حبل الوريد وأقربُ (٦)

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى من بني أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة ، وكان يجتنب المدح والهجاء في شعره ، وقصر شعره على القول في الزهد والمواعظ خاله ابراهيم بن أدهم الزاهد المشهور ، اختلف الى حلقات المحدثين حتى عدّ من رجاله . وكانت ولادته سنة ١٢٣ هـ ووفاته سنة ٢٠٧ هـ .
وانظر ترجمته وأخباره :

الأغاني (دار الكتب) : ١٣/ ٣٣٧ ، والورقه : ٨١ ، والنجوم الزاهرة : ٢/ ١٨٥ ، والفهرست : ١٠٥

(٢) الأغاني : ١٣/ ٣٤٣ .

(٣) محمد بن ادريس بن العباس الهاشمي القرشي ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، واليه نسبة الشافعية كافة ، ولد في غزه سنه ١٥٠ هـ ، أفتى وهو ابن عشرين سنه ، برع في الشعر واللغة وأيام العرب ، وله تصانيف كثيرة منها : المسند في الحديث ، وأحكام القرآن والمواريث ، توفي بالقاهرة سنة ٢٠٤ هـ ، انظر ترجمته :

مناقب الامام الشافعي لعبد الرؤف المناوى ، وتاريخ الامام الشافعي لحسين الرفاعي ، والشافعي لمحمد أبي زهره ، والامام الشافعي للشيخ مصطفى عبد الرزاق ، وانظر أيضا : وفيات الأعيان : ١/ ٤٤٧ ، وصفة الصفوة : ٢/ ١٤٠ ، وتاريخ بغداد : ٢/ ٥٦ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم : ٩/ ٦٣ ، وطبقات الشافعية : ١/ ١٨٥ .

(٤) ديوان الشافعي : ١٦٩

(٥) انظر ترجمة (صالح بن عبد القدوس) ص (٩٤) من البحث .

(٦) حياة الحيوان : ١/ ٣٠ ، ونزهة الأبصار جمع (عبد الرحمن بن درهم) : ٢/ ٢٧٢

والله سبحانه هو الذى يقسم الأرزاق ، يعطي من يشاء ويمنع عمن يشاء ، وفي هذا المعنى يقول صالح بن عبد القدوس[١] أيضا :

وليس بعجز المرء إخطاؤه الغنى ولا باحتيال أدرك المال كاسبُه
ولكنه قبض الإله وبسطه فلا ذا يجاريه، ولا ذا يغالبُه (٢)

وتوجد في ديوان أبي تمام نظرات في الزهد والموعظة ، يقول عن الدنيا وتقلب أحوالها :

أفٍّ للعمر في الدنيا تجدّ وتعمر وأنت غدا فيها تموت وتُقبَرُ
تلقح آمالا وترجو نتاجها وعمرك مما قد ترجيه أقصرُ
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه وليلته تنعاك إن كنت تشعرُ
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت عليك فما زالت تخون وتدبرُ (٣)

وبنظرة سريعة إلى أهم خصائص الزهد والوعظ نجد سهولة الألفاظ وقرب المعاني ميزتين واضحتين فيما استعرضناه من نماذج ، فلا إغراب في الألفاظ ولا تكلف في المعاني ، فهي قريبة المأخذ سهلة الفهم ، يدركها العامي والمتعلم .
وكان الشعراء يدركون أن هذا الغرض يحتاج إلى السهولة والبساطة ، لأن المخاطبين به في الغالب عامة الناس الذين لا يرتفع مستواهم إلى المعاني العميقة والألفاظ الغريبة .

وكان أبو العتاهية في زهده يمثل هذا الاتجاه أصدق تمثيل ، وهو اتجاه يقوم على السهولة في الألفاظ ، والقرب في المعاني ، ومن يقرأ ديوان أبي العتاهية وزهدياته يجد السهولة والوضوح ، يقول نجيب البهبيتي[٤] : " كانت أهم خصائص شعر أبي العتاهية (الشعبيه) التي تقربه من الأفهام جميعا ثم السهولة في اللفظ ، ولطفه وبعده عن الغموض والتكلف ، وكان أبو العتاهية رأس المدرسة الشعبية " .

---

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله الأزدى بالولاء ، أصله من فارس، أبو الفضل شاعر حكيم ، كان متكلما يعظ الناس في البصره ، وله مع أبي الهذيل العلاف مناظرات ، وشعره كله أمثال وحكم ، اتهم عند المهدى بالزندقة ، فقتله ببغداد وقد عمي في آخر عمره . انظر في ترجمته وأشعاره :
طبقات ابن المعتز : ٩٠ ، والعقد الفريد : ٢/ ٣٣٨ ، وفوات الوفيات: ١/ ١٩١
وتاريخ بغداد : ٩/ ٣٠٣ ، ورسالة الغفران : ١٤٢ ، ومعجم الأدباء : ١٢/ ٦
ولباب الآداب لابن منقذ : ٢٧ ، والأعلام : ٣/ ٢٧٧ ، وضحى الاسلام: ٣/ ٩٨ .

(٢) طبقات ابن المعتز (طبع دار المعارف) : ٩٢
(٣) الديوان : ٤/ ٥٩٤
(٤) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى : ٣٨٧ .

وموجز القول : أن الزهد غرض جديد من أغراض الشعر التي نشأت في العصر العباسي لظروف وأسباب عديدة ، كان أهمها تيار المجون والترف ، واختلاط الأجناس وتعدد المذاهب الدينية .

وقد نظمت في الزهد والمواعظ أشعار كثيرة حملت كثيرا من المعاني الإسلامية فبينت هذه الأشعار غرور الدنيا وزوالها ، وصورت أهوال الموت وما بعده من عذاب أو نعيم ، وأرشدت الى الأخلاق الحميدة والصفات المثلى التي يجب على المسلم أن يتحلى بها .

وكان أبو العتاهية رائد الزهد والوعظ في العصر العباسي ، بل في العصور الاسلامية كلها . وقد سلك الشعراء مسلكاً سهلاً في زهدهم ووعظهم ، فقربوهما إلى أذهان العامة ، وذلك ببساطة الأسلوب وسهولة التعبير وقرب المعنى وبساطة التركيب .

وكان القرآن الكريم وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - منبعين استقى الشعراء منهما أكثر المعاني في الزهد والوعظ ، كما استفاد الشعراء من الثقافات المختلفة التي ألموا بها ، وكانت هذه الثقافات مملوءة بالحكم والأمثال .

وبنهاية الحديث عن الزهد والمواعظ ينتهي البحث في أغراض الشعر الاسلامي في العصر العباسي الأول ، وقد ألممنا باليسير عن خصائص الشعر الاسلامي الفنية خلال حديثنا الخاص عن كل غرض . ولا بدّ من تخصيص فصل لدراسة أهم الخصائص الفنية للشعر الإسلامي في هذا العصر ، وهذا هو المبحث الذى يتلو هذا الحديث مباشرة .

أبرز خصائص الشعر الاسلامي في هذا العصر

سبق الحديث في أول هذا البحث[1] عن تطور الشعر العباسي من حيث ألفاظه ومعانيه وأساليبه وأغراضه ، وكان هذا الحديث عاما عن أغراض الشعر العباسي كله وفي هذا الفصل لا بد من وقفة قصيرة نتعرف من خلالها على أبرز الخصائص الفنية للشعر الإسلامي في هذا العصر .

تواجه الباحث عن خصائص الشعر الإسلامي مشكلة تشتت القصائد في كتب الأدب ثم يواجه أيضا صعوبة أخرى وهي تداخل الشعر الإسلامي مع غيره في قصيدة واحدة ولا يلم شتات هذه الأشعار إلا وحدة المعنى الإسلامي فيها .
واذا تأملنا الشعر الإسلامي في العصر العباسي لا نجد أمامنا قصائد كاملة ، اللهم إلا في الزهد والمواعظ ، فقد نظم الشعراء فيها قصائد طويلة من الممكن إبراز أهم خصائصها الفنية بسهولة ، أما بقية الأغراض كالمديح والرثاء فلا نجد إلا أبياتا مبعثرة ضمن قصائد طويلة تصعب دراسة خصائصها .

وإذا بحثنا عن وحدة الموضوع في القصيدة الإسلامية فلا نجده واضحاً إلا في أشعار الزهد والمواعظ ، فقد أفرد الشعراء هذين الغرضين بقصائد كاملة وخاصة عند أبي العتاهية وهذه القصائد تبدأ بالزهد وتنتهي به ، وتكون عرضاً لغرور الدنيا وزوالها ، وتصويراً للقبور وأهوالها وتحذيراً من يوم القيامة ، وما يتبعه من جنة أو نار .
وفي بقية أغراض الشعر الإسلامي لا نجد وحدة للموضوع ، وسبب ذلك أننا أخرجنا كثيراً من أبيات القصيدة في هذه الأغراض بسبب خروجها عن الاتجاه الإسلامي الذي ندرسه .

وصدق العاطفة من أبرز الخصائص التي تميز بها الشعر الإسلامي في هذا العصر ، وذلك لأن هذا الشعر تعبير عن عواطف إسلامية جياشة ، وتصوير لمشاعر المسلم الغيور على دينه والحريص على أمته ووطنه .
ويختلف صدق العاطفة قوة وضعفاً باختلاف الأغراض ، ففي الإلهيات نجد الشاعر مبتهلاً خاشعا أمام الله ، يدعوه ويسأله الصفح والرضوان ، ويعترف بنعمه العظيمة ، ويقر بعجيب صنعه وأبداعه . فلا مجال هنا للمجاملة أو النفاق .

---

(١) انظر ص ١٧ من هذا البحث وما بعدها .

وقد تضعف العاطفة الإسلامية في المديح ، فيخلع الشاعر على الممدوح صفات اسلامية لا توجد فيه ، وقديما لغ في ذلك إرضاء للممدوح وإشباعا لحب المباهاة في نفسه.
ولا يمكن أن ننفي صدق العاطفة في المديح برمته ، بل ننفي الصدق في كثير من قصائده ، ويمثل لصدق العاطفة في المديح الإسلامي بروائع أبي تمام في مديح المعتصم ويزيد بن مزيد ومحمد بن حميد الطوسي ، فعاطفة الشاعر الإسلامية واضحة في هذه المدائح كل الوضوح ، بل نجد عاطفة أبي تمام قوية جياشة فهو متحمس في مدائحه ومراثيه الإسلامية ومندفع بعاطفته الدينية القوية .
أما في الزهد والرثاء فيغلب عليهما الصدق ، لأن الشاعر يعبر عن مشاعره الخاصة ونظرته إلى الدنيا ، وهول ما أصابه بفقد هذا الرجل العظيم ، فلا داعي لتزييف العواطف .

والمبالغة ميزة من ميزات الشعر العباسي ، وظهرت أيضا في المديح والزهد الاسلاميين ، وظاهرة المبالغة ظهرت في هذا العصر ، واتسعت فيما بعد على يد المتنبي وابن الرومي وغيرهما من شعراء العصر العباسي الثاني .
وأبو نواس وأبو تمام وأبو العتاهية كانوا يبالغون أحيانا ، ويخرجون عن الحد المقبول الذي يقبله العقل ويرضاه الذوق ، ونقرأ لأبي نواس في المبالغة مثل قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

ويبالغ أبو تمام في مدح المعتصم بقوله فيه :

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب

ويبالغ أبو العتاهية في احتقار الدنيا وسرعة زوالها ، ويصل إلى حد التشاؤم الذي يجعل الانسان ينظر إلى الحياة نظرة سوداء ، يقول في ذلك :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

ومن الخصائص المعنوية للشعر الإسلامي اعتماد الشعراء في أكثر معانيهم على القرآن الكريم والسنة النبوية ، وقد يستعينون أحيانا بأحداث التاريخ الإسلامي ونجد لذلك أمثلة كثيرة في زهد أبي العتاهية ومدائح أبي تمام وغيرهما ، وقصيدة

أبي تمام في فتح عمورية مليئة بهذه المعاني ، فنجده يشبه فتح عمورية بانتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى ، ونجد أبا تمام يذكر المقدسات الإسلامية في مديحه لمحمد بن يوسف الثغري كقوله :

لم يحدث نفسا بمكة حتى ... جازت الكهف خيله والرقيما (١)
حين عفّى مقام إبليس سامى ... بالمطايا مقام إبراهيما
حطم الشرك حطمة ذكرته ... في دجى الليل زمزماً والحطيما (٢)

ووضوح المعنى وقربه من الأفهام أمر اتصف به الشعر العباسي في مختلف أغراضه أما في الشعر الإسلامي فنجد وضوح المعنى وسهولة اللفظ واضحين في الزهد وأبو العتاهية الذى يمثل تيار الزهد كان يتوخى السهولة والوضوح في زهده ، وقد يتعدى ذلك حده فيأتي بالساقط والمرذول كما يقول أبو الفرج الأصبهاني (٣) ، ولذلك كان أبو العتاهية رأس المدرسة الشعبية (٤) التي نحت بالشعر منحى السهولة والبساطة ، ومع هذا فشاعرنا صاحب إذن موسيقية يضع الكلمة في موضعها ، ويختار للمعنى ما يناسبه من لفظ ، ونقرأ أشعاره في الزهد فنحس بطبع الشاعر وسهولته .

وطابع السهولة والوضوح الذى وسمنا به الشعر الاسلامي قد يتغير إلى العمق والغموض والاغراب في المعنى وذلك في بعض قصائد المديح ، وخاصة مدائح أبي تمام .

واتضحت في أساليب الشعراء القدرة على العرض والتصوير ، والاحاطة بالمعنى من جميع جوانبه وتحليله تحليلا دقيقا ، وكانت ثقافة الشاعر العباسي الواسعة تساعده على الاستقصاء والعرض لمعناه ، ولو طلب من شاعر جاهلي أن يعبر عن تكذيب المنجمين لنظم في ذلك بيتاً واحدا ، ولكن أبا تمام يفصل القول في هذا المعنى ، ويحيط به من جميع جوانبه بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

---

(١) الكهف والرقيم : موضعان ببلاد الروم
(٢) ديوان أبي تمام : ٣/ ٢٢٦
(٣) الاغاني : ٤/ ٢
(٤) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى : ٤٠٥

أين

أين الرواية ؟ أم النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
عجائبا زعموا الأيام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أو رجب (١)

وأبو العتاهية يعرض معانيه عرضاً مفصلاً مملوءاً بالصور والخيال ، فهو ينقلك إلى القبور حتى تتخيل أنك أمام العظام النخرات وفي وسط ظلام حالك وجدران متلاصقة. ويطيل الشاعر نفسه في حديثه عن زوال الدنيا ويصورها بصور مختلفة ، ويستقصي المعنى من جميع جوانبه .

ونلاحظ في الشعر الإسلامي حسن اختيار الالفاظ ، فلكل لفظ مدلول ، ولكل معنى ما يناسبه من الالفاظ ، وكل غرض يحتاج إلى لفظ ووزن وأسلوب يوافقه .
وكان الشاعر العباسي في هذا العصر يختار اللفظ المناسب ، ويضعه في مكانه ، بل قد يصل حسن اختيار اللفظ إلى أن يحمّل الشاعر ألفاظه اكثر مما تحمله من مدلولات ، ويجعل السامع مرتاحا للفظ في مكانه ومتصورا أن غير هذا اللفظ لا يمكن أن يكون لغير هذا المعنى الجميل ، ولنستمع إلى علي بن الجهم في مديحة ، ونلاحظ اضافة لفظ الجلالة الى الخليفة الذى أضفى على الممدوح كثيراً من معاني المهابة والجلال ، يقول علي في مدح المتوكل :

اليك خليفة الله استقلت قلائص مثل مجفلة النعام (٢)

وانظر إلى كلمة " الردة " (٣) حين يطلقها الشاعر على حركة الاعتزال ، ويثير بذلك أكبر محنة واجهت الإسلام في أول أيامه ، ويعجب الشاعر بمن قضى على المرتدين حين يقول مخاطبا المتوكل :

الردة الأولى ثنى أهلها عزم أبي بكر ولم يكفروا
وهذه أنت تلافيتها فعاد ما قد كان لا يذكر (٤)

والملاءمة بين اللفظ والمعنى دليل على قدرة الشاعر الفنية ، وتمكنه من نواصي الكلام والمامه بألفاظ اللغة ومترادفاتها . وقد توفر للشاعر العباسي مالم يتوفر لغيره من الاطلاع الواسع على ما خلفه السابقون ، فألمّ بثقافات عصره ، واستطاع أن يلائم بين ألفاظه

---

(١) الديوان : ١/ ٤٠
(٢) ديوان ابن الجهم : ٧
(٣) انظر علي بن الجهم حياته وشعره لعبد الرحمن الباشا : ٢١٥
(٤) الديوان : ٧٦

ومعانيه ، وأعطى لكل غرض ما يناسبه من اللفظ والأسلوب ، فاذا كان الموضوع يتصل بالحماسة أو المديح أو وصف المخاطر والأهوال أتى له بما يناسبه من الألفاظ الجزلة القادرة على تمثيل الموضوع ، واستعمل له الصيغ التي تستطيع النهوض بالمعنى المطلوب ، وهذا أبو تمام يمدح محمد بن يوسف ، ويأتي بالألفاظ المناسبة للمقام فيقول :

كأن بابك بالبدّين بعدهم ... نوءى أقام خلاف الحي أو وتدُ
بكل منعرج من فارس بطل ... جناجن فلق فيها قنا قصدُ
لما غدا مظلم الأحشاء من أشر ... أسكنت جانحتيه كوكباً يقدُ (١)

وان كان الموضوع رقيقا محزنا كالرثاء اختار له الشاعر ما يناسبه من الألفاظ الرقيقة المثيرة للحزن والأسى ، يقول أبو تمام في رثاء محمد الطوسي :

كذلك ما ننفك نفقد هالكا ... يشاركنا في فقده البدو والحضرُ
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه ... وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطرُ
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ

وحرف الراء يعطينا رنة حزينة تلائم الموقف .

ومن الخصائص الفنية للشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول سمو الخيال ودقة التشبيه وروعة الاستعارة ، وخاصة عندما يتعرض الشاعر لوصف الجيوش الاسلامية والمعارك العنيفة التي خاضتها ضد اعدائها ، وتصوير هزائمهم وخوفهم من المسلمين . ووصف أبي تمام لحريق عمورية واضح مشهور تتضح فيه الروعة الفنية ، والابداع في التشبيه وذكر الأضداد .

أما خصائص هذا الشعر الموسيقية فقد اتبع فيها الشاعر ما سنه الأقدمون وساروا عليه ، ونظم أشعاره ضمن حدود البحور الشعرية المعروفة ، وقد جرت محاولات للتجديد والخروج عن المألوف من وزن وقافية ، وتزعم أبو نواس وأبو العتاهية تلك المحاولات ، وقد أثر عن أبي العتاهية خروجه عن الوزن والقافية ، وحين سئل عن مخالفته لبحور الشعر قال : أنا أكبر من العروض . وكانت هذه المحاولات بسيطة وضعيفة التأثير

---

(١) الديوان : ٢/ ١٨

في الموسيقى الشعرية ، ولا ننكر أن الشاعر العباسي — مع سيره على الأوزان القديمة — قد أبدع في اختيار الموسيقى المناسبة لمعناه وغرضه ، وكان الشعراء يميلون إلى البحور الخفيفة التي تلائم حياة المدنية والحضارة وبوجه خاص في الزهد ، ويميلون الى للبحور الطويلة في المديح والرثاء اللذين يتطلبان القوة والجزالة .

وتميز الشاعر العباسي بذوقه الرفيع وإحساسه المرهف ، فكان يراعي جرس الكلمات الموسيقى ، ويختار ما يناسب الغرض من موسيقى هادئة أو صاخبة . واشتهر البحترى — وهو من شعراء العصر العباسي الثاني — بموسيقاه الرائعة .

وتكرار الكلمات أو تشابهها ينتج عنه موسيقى حلوة ، يقول أبو العتاهية :

يا راعي النفس لا تغفل رعايتها ... فأنت عن كل ما استرعيت مسئول
فالدائرات بريب الدهر دائرة ... والمرء عن نفسه ما عاش مختول
الحمد لله في آجالنا قصر ... نبغي البقاء وفي آمالنا طول (١)

ولاحظ الكلمات (راعي ، رعايتها) و (الدائرات ، دائرة) و (آجالنا ، آمالنا) فستجد أن الشاعر أحدث انسجاماً موسيقياً جميلا بتكراره لهذه الكلمات .

والتقسيمات الشعرية تضفي على القصيدة روعة موسيقية ، ومثال ذلك قول أبي تمام في المديح :

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب (٢)

وقد استطاع بذلك الشاعر العباسي أن يبدع في معناه ، ويسمو بخياله ، ويلائم بين لفظه ومعناه ، واستطاع أن يضع الكلمة في مكانها المناسب بحيث تؤدى المعنى المطلوب ، وتثير ما تحمله هذه الكلمة من موسيقى حلوة .

ولا ننفي عن الشعراء التكلف ، ولا ننكر وجود الردئ من المعاني ، ولكن العبرة بالكثرة ، والحكم على العموم لا على الخصوص .

---

(١) ديوان أبي العتاهية : ٢٨٧ .

(٢) الديوان : ١/ ٥٨

الباب الثالـــــــــث

١- آراء وردود

أ - اثبات الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي .

ب- تمثيـل أبي نواس لعصـره .

حـ- زهـد أبي العتاهيـــــــة .

٢- نمـاذج من الشـعر الاسـلامي في هذا العصـر .

خاتمـة البحـث

آراء وردود

أفردت هذا الفصل لمناقشة مسائل ثلاث :

أولاها : اثبات وجود الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي ، ومكانة هذا الاتجاه بين الاتجاهات الشعرية الأخرى ، وأثره في المجتمع الاسلامي .

والثانية : مناقشة رأى الدكتور طه حسين من أن أبا نواس كان يمثل عصره ويمثل العصر العباسي أصدق تمثيل .

أما الثالثة: فتناولت فيها مناقشة ما يراه أحمد الجوارى من أن أبا العتاهية كان يتحدى القرآن الكريم بشعره ، وأنه أراد بزهده أن يصرف الناس عن القرآن الى ما جاء به من زهد ومواعظ .

أ - اثبات الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي :

ان ما تقدم من هذا البحث هو اكبر دليل على اثبات الاتجاه الاسلامي في شعر العباسيين ، وان هذا الاتجاه كانت له مكانته العظمى في نفوس الشعراء وغيرهم، وهو مع هذا اتجاه هام أثبت وجوده بين اتجاهات الشعر الأخرى في العصر العباسي الأول .

ووجود الاتجاه الاسلامي في الشعر مسألة طبيعية ، لأن أسبابها متوفرة ، ودواعيها موجودة ، ففي كل أمة من الأمم نجد الصراع محتدما بين الحق والباطل وعنيفا بين الطرق المعوجة والطريق المستقيم .

وفي العصر الاسلامي اختلطت الأمة الاسلامية بمختلف شعوبها وحضاراتها ، وجاء كل شعب بما يحمله من المعتقدات والعادات والأخلاق ، فتغير بذلك وجه الدولة الاسلامية سياسيا واجتماعيا وعقليا ، وتأثرت أمة الاسلام بما حملته الشعوب المختلفة من معتقدات وثقافات ، وظهر أثر ذلك على الحياة العباسية بمختلف مظاهرها .

وفي الحياة السياسية اقتبس العباسيون أنظمة أجنبية في الادارة وتنظيم الأعمال من الدواوين وغيرها ، وفي الحياة الاجتماعية انتشرت العادات الفارسية في المجتمع العباسي ، وتأثر العباسيون بما حملته الشعوب الأخرى من عادات وتقاليد من مأكل ومشرب وملبس .

أما في الحياة العقلية فقد فتح الباب على مصراعيه للثقافات الفارسية والهندية واليونانية ، واتسعت حركة الترجمة ، ونقلت اكثر العلوم الى العربية فاصطبغ الفكر العربي والاسلامي بأفكار الشعوب الأخرى ، وتأثر بما حملته هذه الثقافات المختلفة من علوم وفنون وآداب . وحاولت بعض العناصر الأجنبية فرض سيطرتها على العباسيين وخاصة العنصر الفارسي الذى برز عدد من رجاله في الشعر والعلم والقيادة . وظهر التنافس الشعوبي على المناصب في الدولة العباسية ، ومع هذا الاختلاط الثقافي والتأثر بالعنصر الفارسي في الحياة العباسية كثرت الأموال ، وانتشر الترف ، ومالت الطبقة العليا من الأمة الى الليونة ، وشاع فيها الثراء الفاحش مع ما يتبعه من انحلال خلقي ، وضعف الوازع الديني ، وكثرت الملل المنحرفة ، وانتشر الالحاد ، وفشت الزندقة ، وأدمن الناس على شرب الخمور ، وشاعت تجارة الرقيق ، وأثارت مجالس اللهو والغناء والقيان كثيرا من الانحلال في مجتمع العباسيين .

وكان لذلك التطور الكبير الذى شهدته الحياة العباسية أثرا كبيرا على الحياة الأدبية والحياة الشعرية بوجه خاص .

وتأثر الشعراء بما كان يجرى حولهم في هذه الحياة الصاخبة ، فكان من الشعراء من نصب شعره للدفاع عن الأحزاب السياسية ، ووجد شعراء آخرون تفرغوا للهو والمجون ووصف مجالس الخمر والطرب وما يجرى فيها من تهتك ومجاهرة بارتكاب المحرمات .

وكان للدين الاسلامي والخلق الكريم أنصار مخلصون ، دافعوا عنه ، ووقفوا يجادلون المغرضين الذين أثاروا شكوكا حول مبادئه وتعاليمه ، واستمروا يحذرون الناس من الانحلال الخلقي ، ويوقظون المنغمسين في نعيم الدنيا من غفلتهم .
وأتاح العصر العباسي لهؤلاء جميعا جوا من الحرية الفكرية والاجتماعية ، مما دفع بكثير من المنحرفين الى المجاهرة بهذا الانحراف المنافي للخلق والدين .
فما هو موقف الأدب الاسلامي من هذا الصراع ؟ وما هو دور الشعر الاسلامي في الدعوة الى الدين الحنيف والخلق الكريم ؟
ولا بد لنا قبل الاجابة على هذه الأسئلة من تصور الأسباب التي خلقت الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي . وكان من أهم هذه الأسباب ضعف العقيدة الدينية وكثرة النيل من الدين الاسلامي الحنيف ، وانتشار البدع والآراء الضالة ، والمجاهرة

بارتكاب الكبائر في مجالس اللهو وحانات الخمور التي كانت تتعانق فيها الكؤوس، وتصدح فيها أعذب الأنغام .

وانبرى رجال الدين وأهل العقل والحجا ومن ساندهم من الأدباء والشعراء يدافعون عن العقيدة بكل ما أوتوا من قوة الاقناع والحجاج والارشاد والتوضيح واذا كانت مجالس اللهو والخمر قد عمت أرجاء بغداد ، فقد كانت تقابلها مجالس العلم وحلقات الدرس والارشاد ، واذا كانت قد وجدت طبقة من الشعراء المجان كأبي ومطيع والبة وحماد عجرد وغيرهم ، فقد وجدت طائفة أخرى تدافع عن الدين والفضيلة ، وتصف معارك الاسلام وتشيد بقادة المسلمين ، كما تنعى على المنغمسين في لذائذ الدنيا خسرانهم وضلالهم ، ومثل هذه الطائفة عدد كبير من الشعراء كأبي تمام وابن الجهم وأبي العتاهية وعلي بن جبلة وغيرهم .

ووقف أهل السنة بكل ثبات يدحضون الحجة بالحجة ويقيمون البرهان بعد البرهان ويتصدون لطوائف دينية مختلفة من شيعة ومعتزلة ورافضة .

وعلى ذلك فالعصر العباسي الأول شهد صراعا عنيفا بين التدين والانحراف، بين المجون والزهد ، بين الفضيلة والرذيلة ، وكان هذا الصراع بين طرفين القديم الملتزم ، والجديد المتحرر من كل القيود ، وهذا الصراع الرهيب لم تشهد العصور الاسلامية له مثيلا .

وقد ظل الشعر الاسلامي سلاحا من الأسلحة التي وقفت ضد الانحراف والشك والمجون والرذيلة ، ظل هذا الشعر يحذر من الزندقة ويفضح الزنادقة ، ويدعو الى توحيد الله ، ويبين الأدلة القاطعة على وحدانيته وعظمته واستحقاقه للعبادة والخضوع .

وواجه الشعر الاسلامي طلاب الدنيا ومتاعها ، ونهاهم عن الاستسلام لمظاهرها البراقة ، ودعاهم الى العمل الذى يبقى ذخرا ليوم عظيم ، وسجل الشعر الاسلامي بكل فخر واعتزاز انتصارات الأمة على أعدائها ، ووصف المعارك التي خاضتها جيوش الاسلام ، وأشاد بالخلفاء العظام الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الاسلام ورعاية حقوق المسلمين ، واعتز هذا الشعر أيضا بقادة المسلمين الأشاوس ، وأثنى على شجاعتهم وثباتهم في ميادين القتال ، كما رثى لشهدائهم الأبرار الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله وفي سبيل الحق والعدل والسلام .

ولم ينس الشعراء ما للفضيلة والخلق الكريم من دور كبير في سعادة المجتمع ورقيه ، فدعوا الى الفضيلة والأخلاق الكريمة التي دعا اليها الاسلام وحذروا من الانحدار بالقيم الانسانية والفضائل الخلقية والتي بانحلالها يضعف المجتمع وتسوده الفوضى ويسيطر عليه الاضطراب .

وباختصار فقد أدى الشعر الاسلامي دوره الايجابي في الدفاع عن الدين والفضيلة والخلق الكريم ، واستطاع هذا الاتجاه أن يصور جانبا من أهم الجوانب التي عاشتها الأمة الاسلامية في عصر من أخصب عصورها تقدما وحضارة وعلما . والنماذج الشعرية التي مرت بنا في ثنايا البحث دليل كاف على الدور الكبير الذى اضطلع به الشعر الاسلامي في العصر العباسي الأول .
فهل يصح لنا بعد هذا أن نحكم على العصر العباسي بأنه عصر نفاق وشك ومجون ؟ وهل يجوز لنا أن نجعل أبا نواس وأضرابه يمثلون العصر العباسي أو الشعر العباسي ؟ هذا ما سنتناوله بالبحث والمناقشة في المسألة الثانية من مسائل هذا الفصل .

٢- تمثيل أبي نواس لعصره :

في حديث المرحوم طه حسين عن العصر العباسي والشعر العباسي ما يثير العجب والدهشة ، ويدعو الى الوقوف قليلا عند الآراء التي تبناها وانطلق بمقتضاها ليصدر أحكامه على العصر العباسي والحياة الأدبية فيه .

ويجب على الباحث قبل أن يدخل في الحديث عن العصر العباسي أن يتصور الحياة العباسية بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والثقافية .
لا بدّ للباحث من رسم صورة للمجتمع العباسي ينطلق بمقتضاها الى دراسة الحياة الأدبية والشعرية في هذا العصر ، فلا بد أن يتذكر الامتزاج الذى حدث بين الجنس العربي والأجناس الأخرى ، وما كان لهذا الامتزاج من آثار خطيرة يجب أن نتذكر مجالس اللهو والمجون والانحراف الديني ، ونتذكر مجالس العلم وحلقات الوعظ والارشاد ، واذا تذكرنا أبا نواس ومطيع وحماد ووالبة يجب أن نذكر أبا العتاهية وأبا تمام وابن الجهم والوراق وابن المبارك .

واذا رسخت في أذهاننا صورة واضحة لهذا العصر يحق لنا أن نناقش ما قيل عنه ، وما حكم به عليه ، وتلك الصورة جمعت بين الشك واليقين ، بين الزهد والمجون ، بين التدين والانحراف ، وعبر الشعراء عن هذه الصورة أصدق تعبير .

وقد حكم الدكتور طه حسين على العصر العباسي بأنه عصر شك ومجون ، ورأى أن أبا نواس وزملاءه يمثلون هذا العصر أصدق تمثيل . فما هي أقوال الدكتور عن هذه المسألة ؟ وعلى أى أساس أصدر هذه الأحكام ؟ وهل كانت أحكامه مطابقة للحقيقة وموافقة للواقع ؟

يقول طه حسين(١) : " ان العصر العباسي عصر انتقال من بداوة الى حضارة ، ومن سذاجة الى تعقيد ، ومن فطرة خالصة الى علم وفلسفة ، وكان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة وشعوب متباينة ، منها البدوى والحضرى ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغني والفقير ، أفتريد أن تختلط هذه الأمم ، وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصرى والرومي ، وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال ، فأما في الحياة الواقعة فليس اليه من سبيل " .

هذه مقدمة طويلة خرج منها الدكتور طه حسين بأن الاختلاط في العصر العباسي كان له أثر بعيد في الحياة العباسية ، وهذه حقيقة مسلم بها ، ولا يستطيع أحد أن ينكر الآثار الكبيرة التي نتجت عن هذا الاختلاط .
وعلى أساس هذا الاختلاط ، وما تبعه من تطور وتغيير في الحياة العباسية بنى طه حسين أحكامه على العصر العباسي ، وأصدر أحكامه على الشعراء والحياة الشعرية في هذا العصر .

ونحن نسلم بأن الاختلاط في العصر العباسي كانت له آثاره البعيدة ، وكانت نتائج هذا الاختلاط خطيرة على جوانب الحياة المختلفة ، ولكن هل معنى هذا أن العصر العباسي نبذ القديم ؟ وهل تخلى عن عقيدته وأخلاقه وتقاليده؟

---

(١) حديث الأربعاء : ٣/ ٦٩

هل تغيرت الحياة العباسية تغيرا جذريا لا يرتبط بالماضي ؟ هل انمحت العقيدة السليمة والأخلاق الفاضلة بسبب الاختلاط ؟
الجواب على هذه الأسئلة جميعا : لا ، لأنه لا يمكن تصور انقلاب الحياة وتغيرها فجأة وذهاب العقيدة والأخلاق بأمره ، فالتطور واقع ، والتغيير أكيد ، ولكن في حدود .

وعندما نتذكر الشعر العباسي تتبادر الى أذهاننا صورة أبي نواس ومطيع وغيرهما وترتسم في مخيلتنا صورة لهوهم ومجونهم وغزلهم الشاذ والمكشوف ويخيل للباحث أن هؤلاء هم صورة العصر ، وهم الطبقة التي تمثل الحياة الشعرية على أقل تقدير ، وبعد بحث وتدقيق يتضح لنا خلاف هذا ، يتضح لنا الجد والتدين ، ويتضح لنا أن هناك اتجاها اسلاميا بجانب هذه الاتجاهات المنحرفة ، ولكن العناية بالاتجاه الاسلامي معدومة ، والدراسة لهذا النوع من الشعر ضئيلة ، مما يجعل اكثر الناس يرسم صورة خاطئة للشعر العباسي في خياله .

يقول الدكتور طه حسين عن العصر العباسي [1]: "كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون " ، ويواصل حديثه عن الخلفاء العباسيين فيقول : " ولعلك تذكر ما يروى عن الخلفاء أنفسهم ، وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب ، دون أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا بمظهر الأئمة الأتقياء ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد وأمثال الرشيد " [2] .
وبعد اتهامه للعصر العباسي كله ، واتهامه للخلفاء ، يمضي ليثبت لنا تمثيل أبي نواس للعصر العباسي فيقول: [3] " أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحياة ، فيكلفون به هذا الكلف اذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر

---

(١) حديث الاربعاء : ٢/ ٣٦
(٢) حديث الاربعاء : ٢/ ٣٦
(٣) حديث الاربعاء : ٢/ ٣٥

وما يضطرب في نفوسهما من عواطف " .

ثم ينفي طه حسين دور رجال الدين في الحياة وأنهم لا يمثلون أحدا فيقول: (١) " وكان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الحديث يروونه ، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأى أحد ، ولا يمثلون الا العلم الذى يعنون به " .

وأ يرا يسدل ستارا من الشك على ورع العلماء وزهد الأتقياء والصالحين ويقول: (٢) " بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك حين نذكر من هؤلاء العلماء وامعانهم في البر والتقوى ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار يحيى بن اكثم الذى كان قاضيا للمأمون ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار أبي عبيدة معمر بن المثنى وما كان بينه وبين الشعراء " .

وعلى هذا فشعراء المجون هم الذين يمثلون العصر العباسي ، يقول طه حسين: (٣) " واذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ، ويعلنون المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة " .

وأبو نواس هو شاعر المجون الأول في العصر العباسي ، فهو الذى يمثل هذا العصر كما يقول ذلك طه : " واذا أردنا مثالا يختصر العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس الذى سنتخذ درسه الخاص سبيلا الى درس هذا العصر كله "(٤) .

وليس أبو نواس وحده هو الذى يمثل العصر العباسي ، بل قصيدة واحدة من قصائده كافية لتمثيل العصر العباسي كله في رأى طه حسين ، واستمع اليه يقول (٥): " على أننا نستطيع أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر اذا روينا لك قصيدة من شعر أبي نواس والتي مطلعها :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فانظر هذه القصيدة على قصرها ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقا " . وهذه القصيدة تمثل الحياة الشعرية في بغداد : " ان هذه القصيدة تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس تمثيلا مجملا (٦) " .

---

(١) حديث الاربعاء : ٢/ ٣٥
(٢) المرجع السابق : ٢/ ٣٦
(٣) المرجع السابق : ٢/ ٣٦
(٤) المرجع السابق : ٢/ ٣٦
(٥) المرجع السابق : ٢/ ٢٥، ٢٦
(٦) المرجع السابق : ٢١/ ٢٦

تلك هي أقوال المرحوم طه حسين عن العصر العباسي وشعرائه وعلمائه وخلفائه ويهمنا الشعر والشعراء ، وقد أوردت نصوص أقواله مفصلة ومطولة حتى نستطيع أن نناقش هذه الاقوال والآراء والأسباب التي أوردها تعليلا لأحكامه ، وستكون هذه المناقشة مبنية على ما سقناه من أقواله .

وقبل البدء في مناقشة هذه الاقوال نضع حقيقة لا يمكن أن ينكرها من يقرأ أقوال طه حسين السابقة ، وهذه الحقيقة هي أن الدكتور شك في الخلفاء والوزراء والشعراء والعلماء والأتقياء ، بل شك في العصر العباسي كله ، ومن يقرأ هذه الاقوال يتصور أن العصر العباسي خلو من الدين واليقين والخلق وعلى هذا فمن هم الذين تمسكوا بالدين في نظره ؟ من هم الذين دافعوا عن الاسلام والفضيلة ؟ من هم الذين ألفوا الفقه والحديث وعلوم الدين ؟ هؤلاء جميعا لا وجود لهم في نظره لأن العصر عصر شك ونفاق ورياء ومجون كما يقول !!

وبقي شيء واحد لم ينله شك طه حسين وهو هل كان الاسلام موجودا في العصر العباسي ؟

وبعد اثبات هذا الشك العام الذى رمى به طه حسين العصر العباسي ننتقل الى تفاصيل الاقوال ومناقشتها ، ونستعين بالله على معرفة الحقيقة والوصول الى الحق والصواب .

أما عن اختلاط العرب بغيرهم ، في العصر العباسي ، وما نتج عن هذا الاختلاط من آثار بعيدة في الأخلاق والعادات والنظم فهذا أمر مسلم به ، لأن مثل هذا الاختلاط لا بد أن تعقبه آثار مختلفة على أى أمة من الأمم ، وقد ظهرت آثار هذا الاختلاط في كل مظهر من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، وسلف تفصيل هذه الآثار في الحديث عن الحياة العباسية في أول هذا البحث .(١)

واتهام العصر العباسي كله بالشك والمجون أمر فيه نظر ، فاذا كان المقصود أن المجون والشك انتشرا في هذا العصر ، ونشأت طبقة من الناس تعيش حياة الشك والمجون فهذا أمر معروف وثابت ، أما اذا كان المقصود بهذا الشك والمجون أن كل طبقة من الطبقات دخلها الشك وعاشت حياة المجون فهذا ليس بصحيح ، لأن العقل لا يتصور أمة من الأمم تعيش بكامل أفرادها في شك

---

(١) انظر ص ٦ من هذا البحث وما بعدها .

ومجـون ، ولو حدث ذلك في عصر من العصور فهو أبعد ما يكون في العصـر العباسي ، ويكفينا دليلا على حياة الجد والعلم والتدين التي كان العباسيون يعيشونهـا تلك المؤلفات الضخمة في علوم الدين من فقـه وتفسـير وحديـث ، زيادة على العلوم اللغوية والتاريخ وغيرها .

فهل من الممكن أن يخلف لنا العصر العباسي تلك الثروة الفكرية الهائلـة وهو يعيش في شك ومجون ونفاق ؟ بل ان العصر العباسي الأول يعـد مفخرة من مفاخر التاريخ الاسلامي ودرّة في جبين الحضارة الاسلامية المجيدة .

واتهام الخلفاء العباسيين باللهو والمجون أمر خارج عن نطاق بحثنا ، ولكنه يتصل به اتصالا غير مباشـر ، فالخلفاء العباسيون طبقة من طبقات المجتمـع لأخلاقها وعقيدتها دور كبير في أخلاق بقية الطبقات وعقائدهم ، فالنـاس على دين ملوكهم كما يقولون .

ويتهم طه حسين الخلفاء باللهو والمجون ، وانهم كانوا يظهرون بمظهريـن أحدهما للعامة وهو مظهر الجد والتقوى ، والثاني للخاصة ولأنفسهم وهـو مظهر اللهو والمجون ، ويركز على الرشيد والمأمون باعتبارهما أعظم الخلفـاء العباسيين ، ويعارض ابن خلدون في تنزيهه للرشيد عن العيوب ، ويقول ان ابن خلدون كان يخدع نفسه .

ومما لا جدال فيه أن الخلفاء كغيرهم من الناس، كلهم معرضون للخطـأ والانحراف ، وليس منهم المعصوم عن الزلل وارتكاب الاثام ، ولكن ما رواه التاريخ عن هؤلاء هو الدليل على تدينهم وأخلاقهم الفاضلة ، ولا نستطيع هنـا أن ننفي اللهو والمجون عن الرشيد والمأمون نفيا قاطعا ، ولا يمكن أن ننـزه الخلفاء عن الاثام والرذائل لأنهم خلفاء ، واذا كانوا وصلوا الى أعلى مناصـب الدولة فهذا لا يجعلهم معصومين عن الزلل ولا منزهين عن الصغائر ، ولكـن الحقائق التاريخيـة هي الحكم في ذلك ، وقد روى عن أغلب الخلفاء العباسيين التدين وتشجيع العلماء ، وكان اكثرهم يتمتع بأخلاق اسلامية عالية ، وجهـاد الدولة الاسلامية ضد أعدائها دليل على حرص خلفائها ، وما خلفه العصـر كلـه من علم ودين دليل على صلاح الخلفاء وورعهم ، وقد تستفزهم الشهوات فيلبون نداءها ، ولكن الى حين ، فايمانهم القوى أقوى من كل شهوة ، واذا أثـر

عن بعضهم شرب الخمر فقد أثر عنهم جميعا حب الدين وتشجيعه والعمل على نشره ، واذا وجدت نقطة سوداء في وسط تاريخ مشرق فلا يضيره هذا ، وكفى المرء نبلا أن تعد معاييه .

ودليل واضح على صلاح الخلفاء ما وصلت اليه الحضارة في العصر العباسي الذى لا يزال يحتفظ بأعلى قمة من قمم التاريخ الاسلامي حتى اليوم .

والعصر العباسي لا يمكن أن يمثله أبو نواس بحال من الأحوال ، وما قاله طه حسين عن هذا الموضوع يحتاج الى مناقشة وتمحيص، فهل من الممكن أن نجعل شخصا واحدا يمثل عصرا كاملا ؟ هل وجدت جميع مظاهر الحياة العباسية في أبي نواس؟ هل وجد زهد الزهاد ؟ وهل وجد ورع العلماء ؟ بل هل كان أبو نواس يمثل الزنادقة والملحدين ؟ طبعا لا ، لا يمكن أن تجتمع هذه المظاهر في شخص أبي نواس، وكيف يجتمع النقيضان ؟ الزهد والمجون التدين والانحراف ، وحتى لو وجدت اكثر الميول والأهواء عند أبي نواس فهل كانت هذه الميول تمثل النسبة في طبقات الأمة كما هي عند أبي نواس ؟ لقد كان الشاعر ماجنا مستهترا فهل كان العصر العباسي وأفراده مثل أبي نواس في مجونه ؟ كان أبو نواس يميل الى الغلمان ، فهل كان هذا الشذوذ موجودا في الناس كلهم ؟ الجواب على هذه التساؤلات بالنفي ، وكيف لنا أن نجعله يمثل العصر العباسي مع أن الواقع ينكر هذا كل الانكار ، صحيح أن المجتمع العباسي مجتمع انتشر فيه الشك وفشا فيه المجون ، ولكن في طبقة خاصة هي طبقة الوزراء والقواد ومن حولهم من الشعراء والمغنين ، أما عامة الشعب فلا تعرف الشك والمجون ، وكانت تعيش حياة الايمان والعفة والتقى ، واذا قرأنا في دواوين هؤلاء المجان أوصاف الخمر وندمائها وسقاتها ، وقرأنا الغزل المكشوف والشاذ ، فيجب أن نقرأ ملاحم البطولة الاسلامية في دواوين شعراء آخرين ، ويجب أن نقرأ ما قيل في الحث على الأخلاق الكريمة ، وما قيل في التحذير من مفاتن الدنيا ، ويجب ألا ننسى دفاع الشعراء عن مبادئ الاسلام ، ولا ننسى تلك الالهيات الرائعة في مناجاة رب العالمين .
واذا كان الشك والمجون قد فشا في طبقة من الطبقات فان التدين والالتزام تدين بهما اكثر الأمة ، ان هؤلاء المجان كأبي النواس وأضرابه لا يمثلون

الا الاستسلام لشهوات النفس والانحراف الخلقي الذى وجد في العصر العباسي وهؤلاء لا يمثلون الدين والوقار والورع .

ان هؤلاء الذين جعلهم الدكتور طه حسين يمثلون العصر العباسي ، لا يمثلون في الحقيقة سوى اتجاه منحرف من الاتجاهات التي سببها الاختلاط بين العرب وغيرهم ، وهؤلاء يمثلون المجون فحسب ، ويمثلون التهتك والمجاهرة ليس غير ، انهم يمثلون الطبقة " الارستقراطية " التي دفعها الترف والثراء الى تلبية شهوات النفس الحيوانية ، ونسيان مطالبها الروحية ، فانغمس هؤلاء في نعيم الدنيا الزائل ، وتناسوا الدار الآخرة وطاعة الله .

ومادام هؤلاء المجان لا يمثلون سوى طبقة قليلة في عددها من طبقات الأمة فمن يمثل بقية هذه الطبقات ؟ يمثل بقية الطبقات الزهاد والعلماء والأتقياء وأصحاب النفوس النقية .

ولو حاول باحث أن يقارن بين نسبة المجون والتدين في العصر العباسي لوجد أن البون شاسع بين النسبتين ، لأن طبقة المجون تقتصر على نفر من الشعراء والمغنين والمغنيات ومن ضمهم من الوزراء وكبار رجال الدولة . أما بقية الأمة فتكون النسبة الكبرى وهي نسبة التدين ، ولا شك أن رقعة المجون في العصر العباسي قد كبرت ، ووضع من الحبة قبة ، وعكس ذلك صغرت رقعة التدين وتجاهلها كثير من الدارسين ، ظنّا منهم أن هذا المجون منتشر في كل الطبقات.

وكون الخلفاء يظهرون بمظهرين مختلفين أحدهما ماجن والآخر متدين ، فهذا دليل على أن الرأى العام العباسي متدين ينظر الى خليفته نظرة دينية ويجعله حامي الدين والوطن ، والا فلماذا ينافق الخلفاء اذا كان العصر كله عصر شك ومجون ؟

وحتى هؤلاء المجان الذين جعلهم طه حسين يمثلون العصر العباسي -عصر الشك والمجون - حتى هؤلاء كانت تظهر على كثير منهم مظاهر التدين، وكان بعضهم يحس بثقل الذنوب فيثوب الى ربه ، ثم يعود الى غيه مرة أخرى وروائع أبي نواس في الزهد والالهيات والمديح الاسلامي اكبر دليل على ما نقول .

ثم من قال ان ما روى لنا عن مجون أبي نواس صحيح ؟ ليس من شك في أن بعض ما روى عنه من المجون والمجاهرة كان منحولا ، اضافه الناس لعوامل مختلفة مادية ومعنوية ، وديوانه لم يجمع في كتاب واحد في حياته بل جمع بعد وفاته ، وتعرض لكثير من الزيادات . ونوادر أبي نواس جعلت كثيرا من الناس يزيد وينسب الى أبي نواس ما لم يقله ، ذلك لأن الناس يميلون الى النوادر والطرائف ، والأشياء المثيرة للعجب ، ومثل هذا كثير ، فهناك ما روى عن المهلهل وعنتره ومجنون ليلى وجحا وغيرهم اكثر ما روى عن هؤلاء منحول عليهم ومكذوب .

ولو فرض أن ما روى عن مجون أبي نواس صحيح فمن قال إن الناس قد كلفوا به ؟ ان الذين أعجبوا به وكلفوا به هم مجان أمثاله ، أما غيرهم فقد انكروا عليه ما يفعل ، وحتى لو أعجب الناس به فليس لأنهم يميلون الى المجون والشك بل لما في حياته وأخباره من الطرف والنوادر التي تثير الضحك وتبعث على التسلية ، ونحن الآن نلتذ بما يروى عن أبي نواس من النوادر التي قد تخل بالدين ، وقد نلتذ بنوادره مع الفقهاء ورجال الدين خاصة .

والنتائج التي خرجنا بها حتى الآن هي أن العصر العباسي لم يكن عصر شك ومجون ، ورقعة المجون فيه ضيقة جدا بالنسبة للتدين ، وقد بولغ في وصف المجون في هذا العصر ، وسكت عن الاتجاهات الدينية في الوقت نفسه والخلفاء العباسيون كانوا عظاما مهما نسب اليهم من اللهو ، واذا كان اللهو قد دخل حياتهم فهو قليل بجانب ما أثر عنهم من الجد والتدين .

والشعراء المجان كأبي نواس لا يمثلون العصر العباسي ، بل يمثلون طبقة منحرفة من طبقات المجتمع ، ولا يمثلون اكثر الأمة ، ولا يمثلون التقى والورع والزهد .

واعجاب الناس بأبي نواس ليس مدفوعا بحب المجون ، ولكنه مدفوع بحب الطرف والنوادر ، والشك في صحة ما روى عن أبي نواس لا يزال قائما .

بقي قولان من أقوال طه حسين ، وهما أن أبا نواس يمثل الحياة الشعرية في عصره وأن قصيدته التي مطلعها : " دع عنك لومي .....) تمثل العصر العباسي تمثيلاً مجملا .

وتمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره أمر مردود لأن أبا نواس لا يمثل اتجاه أبي تمام مثلا ، كما أن الفرق بين أبي نواس وأبي العتاهية فرق كبير وديوان أبي نواس لا يمكن أن يوافق ديوانا واحدا من دواوين الشعراء في عصره ، بل ان أبا نواس لا يوافق شاعرا من الشعراء في غرض من أغراضه ، واذا ثبت هذا فكيف نجعله يمثل الحياة الشعرية كلها ؟

ولو وافقنا طه حسين على تمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره لوجب علينا أن نبعد الزهد والملاحم الاسلامية والدفاع عن الاسلام عن الحياة الشعرية في هذا العصر ، ووجب أيضا أن نجعل الخمريات والمجون والغزل المكشوف هي الشعر العباسي كله ، وهذا أمر لا يقر به باحث يتحرى الانصاف ويهتم بالشمول والاستقصاء .

إن عواطف أبي نواس تختلف عن عواطف الشعراء ، فهو ميال الى الخمر بل ان الخمر هي الحياة بالنسبة له ، أما بقية الشعراء فلم يثبت ذلك عنهم ، واذا أثبتنا تمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره فمعنى هذا أننا ننفي وجود العواطف الاسلامية التي عبرت عن المشاعر المؤمنة ، وصورت ما يجيش في نفوس المسلمين من عواطف .

وأخيرا لا يمكن أن يمثل الحياة الشعرية شاعر واحد ، بل ولا عدد من الشعراء وانما يمثل الحياة الشعرية شعراء العصر جميعا الذين عبروا عن مختلف الأخلاق والمعتقدات وصوروا ما شاهدوه وما تأثروا به من أحداث ومن عيوب المنهج التاريخي في النقد عدم الاستقصاء والشمول للاتجاهات المختلفة ، وأغلب الظن أن الدكتور طه حسين وقع في هذا الخطأ وهو عدم الاستقصاء والشمول الذى يعدّ عيباً من عيوب المنهج التاريخي في النقد .

واذا كنا رفضنا التسليم بتمثيل أبي نواس لعصره فهل يمكن أن نسلم بتمثيل قصيدة من قصائده للحياة الشعرية في عصره ؟ بالطبع لا ، وهذه القصيدة التي جعلها طه حسين تمثل الحياة الشعرية في عصر أبي نواس هي التي مطلعها :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء ودواوني بالتي كانت هي الداء

ويدلل الدكتور طه حسين على تمثيلها للحياة الشعرية بقوله أنها تمثل رجل الدين

من جهة ، وتمثل رجل المجون من جهة أخرى ، فأبو نواس يعارض النظام في عدم المغفرة من الله ويقول ان حظر العفو ازراء ، وتمثل هذه القصيدة مذاهب المتكلمين ، لما ورد فيها من معان وألفاظ لا يقولها الا متأثر بحركة المتكلمين والمعتزلة . كل هذا لا يكفي دليلا على تمثل القصيدة للحياة الشعرية ، ولا داعي للاطالة في هذه المسألة لأن القصيدة مهما بلغ طولها ، ومهما تعددت معانيها واتجاهاتها لا يمكن أن تعبر عن الحياة الشعرية كاملة ، واذا كانت هذه القصيدة قد ظهر عليها التدين والمجون والاعتزال فان الشاعر لا يؤمن بهذه الأشياء مجتمعة ، يضاف الى هذا أن القصيدة لا تمثل التدين في شيء ، فكلها وصف للخمر والساقية واثر الخمر على شاربها ، بل ان التدين الذى ذكره طه حسين يعتبر مجونا لأن الشاعر يتبجح بارتكابه للمعاصي ، ويسخر من هؤلاء الذين يريدون أن يرفعوا العفو عنه .

ومجمل القول في هذه المسألة أن الدكتور طه حسين بالغ مبالغة شديدة في تصوير المجون والشك الذى حدث في العصر العباسي ، حتى وصم العصر كله بهذا المجون ، ثم نقصه الشمول والاستقصاء حينما حكم بتمثيل أبي نواس لعصره وبالغ في هذا التمثيل حتى جعل قصيدة واحدة تمثل الحياة الشعرية كلها .
ويبدو أنه تجاهل التدين والزهد ، وتجاهل الشعراء الذين دافعوا عن الاسلام كما تجاهل تلك المجلدات الدينية الضخمة التي ألفت في عصر الشك والمجون كما يقول .

٣- زهد أبي العتاهية :

لن نتعرض في هذه المسألة الى الحديث عن نشأة الزهد وأسبابه ومعانيه فذلك ما سبقت دراسته في أغراض الشعر الاسلامي ، وفي هذه المسألة سنتوقف عند رأى أحد الباحثين في زهد أبي العتاهية . وسبقت الاشارة الى ما اتهم به ابو العتاهية من نفاق ومجاملة في زهده ، لانه كان يكنز الذهب والفضة، وكانت سيرته الأولى ماجنة لا تدل على أن الرجل صادق فيما يردده من أشعار ، وقد تكون هذه التهم سهلة بالنسبة لما اتهمه به أحمد عبد الستار الجوارى من تحديه للقرآن ومحاولته الوصول الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين .

يقول الجواري [1] : وكان أبو العتاهية يصدر في شعره في الوعظ عن موردين : الأول ما أصابه من الحكمة والفلسفة ، والثاني هو القرآن ، وهذه ظاهرة تستحق التأمل فهو مرمي عند بعض مؤرخيه بأنه كان يعتنق الزندقة ، فموقفه من القرآن موقف المتحدى الذى ينازله ويقلده ، وكان يتطلع بشعره في الحكمة والأخلاق الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين والمؤمنين ، ولعل هذا المسلك من أبي العتاهية كان حلقة في سلسلة من عمل أعداء الاسلام لمناهضته ومحاربته ، والله بالأسرار عليم " . هذا ما يقوله احمد الجواري عن زهد أبي العتاهية ، وما ورد عنه من حكمة وأخلاق وهذا القول يثير العجب والدهشة ، فلو اكتفى الباحث برمي أبي العتاهية بالزندقة أو النفاق لكان ذلك أمر معقول ، ولكنه تعدى هذا الى أن جعل أبا العتاهية يتحدى القرآن ، ويتطلع بشعره الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين .

ونقول هنا كيف يتحدى شاعر من الشعراء القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أعجز السابقين قبله حتى قالوا انه سحر . فالقرآن الكريم فوق بلاغة كل بشر لأنه معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذى تحدى به الله جميع الناس ، ولو اجتمعوا لعجزوا أن يأتوا بسورة من مثله .
وأبو العتاهية يعرف منزلة القرآن الكريم من البلاغة والفصاحة ويعرف أنه عاجز عن تحدى هذا الكتاب ، وحتى لو تطاول أبو العتاهية على القرآن الكريم وحاول أن يقلده أو ينازله فلن ينجح في ذلك ، لأن القرآن الكريم فوق مستوى البشر جميعا .

وأما ما يقوله الجواري من تطلع أبي العتاهية الى منزلة القرآن الكريم في نفوس المسلمين فهذا أمر لا تسنده الأدلة والبراهين ، ثم لو فعل ذلك أبو العتاهية فهل سيصل الى منزلة القرآن ؟ لا ، فالمسلم لا يمكن أن يوازى ما قاله الشعراء جميعا بآية من آيات القرآن ، وأما من ضعفت عقيدته فقد يستخف بالقرآن ، ويفضل الشعر عليه .
واستشهد الجواري ببضعة أبيات اقتبس فيها أبو العتاهية بعضا من معاني القرآن الكريم ، وهذا دليل لنا لا علينا ، والسبب أن القرآن الكريم كان منهلا للشعراء جميعا مع اختلاف فيما أخذه كل منهم ، واقتباس أبي العتاهية لبعض معاني القرآن دليل على ايمانه وتقواه ، ثم أن أبا العتاهية لم يذكر القرآن الكريم بسوء ، ولم يتعرض لسب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان في أشعاره كلها موحدا لله ، مثنيا على رسوله

---

(١) الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى : ٢٥١ وما بعدها .

الكريم ، ومعجبا ببلاغة القرآن الذى نزل لهداية البشر جميعا .
ولا يسلم الانسان من النقد أبدا ، لأن أبا العتاهية لو أهمل القرآن ومعانيه لاتهموه بالزندقة ايضا واحتجو بأنه لم يتأثر بالقرآن ولا بمعانيه وأنه شذ عن شعراء عصره . وحينما اقتبس بعض المعاني القرآنية اتهموه بتحدى القرآن ، فهو متهم في الحالين .

وأخيرا لماذا لا نحمل الأمر على ظاهره ، ونجعل اقتباس الشاعر من القرآن الكريم دليلا على الايمان العميق والتأثر بمعاني الكتاب الكريم ، ومادام ديوان الشاعر خاليا من تحدى القرآن ومن سب الرسول صلى الله عليه وسلم أو الدين ، وفي الوقت نفسه مملوءا بالارشاد والوعظ والدعوة الى الأخلاق الكريمة مادام كذلك فلماذا نتهمه بتحدى القرآن ، ونرميه بالتطلع الى منزلته في نفوس المسلمين ، مع العلم أن الشاعر في الحالين لن يستطيع الوقوف أمام القرآن بأبيات هزيلة ، ولن يستطيع الوصول الى أدنى منزلة للقرآن في نفوس المسلمين .

وأظن أن الباحث قد تجنى على رائد الزهد العربي ، ورماه بتهمة خطيرة لا أساس لها من جهة ، ولا يستطيع الشاعر تحقيقها من جهة ثانية .

وفي ختام هذا الفصل أسأل الله التوفيق والسداد فيما ناقشته من آراء ، وكل أملي أن أصل الى الحق والصواب ، والله الهادى الى سواء السبيل .

* * * * *

نماذج من الشعر الاسلامي في هذا العصر

قال أبو تمام (١) في فتح " عمورية " يمدح الخليفة المعتصم :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حدِّه الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في ... متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والريبِ
والعلْم في شهبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخميسينِ لا في السبعةِ الشهبِ
أين الروايةُ بل أين النجومُ وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ ؟
تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً ... ليست بنبعٍ إذا عُدَّت ولا غربِ
عجائباً زعموا الأيامَ مجفلةً ... عنهن في صفرِ الأصفارِ أو رجبِ
وخوفوا الناسَ من دهياءَ مظلمةً ... إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنبِ
وصيروا الأبرجَ العليا مرتّبةً ... ما كان منقلباً أو غير منقلبِ
يقضون بالأمرِ عنها وهي غافلةٌ ... ما دار في فلكٍ منها وفي قطبِ
لو بيّنتْ قط أمراً قبلَ موقعه ... لم تُخفِ ما حلَّ بالأوثانِ والصلبِ
فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به ... نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطبِ
فتحٌ تفتحُ أبوابُ السماءِ له ... وتبرز الأرضُ في أثوابها القُشُبِ
يا يوم " وقعة عموريّة " انصرفتْ ... عنكِ المنى حُفَّلاً معسولةَ الحلبِ
أبقيتَ جدَّ بني الاسلامِ في صعدٍ ... والمشركين ودارَ الشرك في صببِ

* * * * *

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنارِ يوماً ذليلَ الصخرِ والخشبِ
غادرتَ فيها بهيم الليلِ وهو ضحى ... يشلّه وسْطَها صبحٌ من اللهبِ
حتى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رغبتْ ... عن لونِها أو كأنَّ الشمسَ لم تغبِ

---

(١) ديوان أبي تمام : ١/ ٤٠-٧٣ .

ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخانٍ في ضحىً شحبِ
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة من ذا ولم تجبِ

* * * * *

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ ... للهِ مرتقبٍ في اللهِ مرتقبِ
ومُطعَمِ النصرِ لم تكهم أسِنَّته ... يوماً ولا حُجبت عن روحِ محتجبِ
لم يغزُ قوماً ولم ينهدْ إلى بلدٍ ... إلا تقدمه جيشٌ من الرعبِ
لو لم يقدْ جحفلاً يومَ الوغى لفدا ... من نَفْسِهِ وحْدَها في جَحفلٍ لجبِ
رمى بك اللهُ برجَيْها فهدَّمها ... ولو رمى بِكَ غيرَ اللهِ لم تصبِ
من بعد ما أشّبوها واثقينَ بها ... واللّهُ مفتاح باب المعقلِ الاشبِ

* * * * * *

لبّيتَ صوتاً زبطرياً هرقت له ... كأسَ الكرى ورُضاب الخرّدِ العُرُبِ
عداك حرُّ الثغورِ المستضامةِ عن ... بَرْدِ الثغورِ وعن سَلْسالها الحَصِبِ
أجبتهُ معلناً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبتَ بغيرِ السيفِ لم تُجبِ
حتى تركتَ عمودَ الشركِ منعفراً ... ولم تُعرّج على الأوتادِ والطنبِ

* * * * *

خليفةَ اللهِ جازى اللهُ سعيكَ عنْ ... جرثومةِ الدينِ والإسلامِ والحسبِ
بَصُرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جسرٍ من التعبِ
إن كان بين صروفِ الدهرِ من رحمٍ ... موصولةٍ أو زمامٍ غير مُنقضبِ
فبين أيامك اللاتي نُصرتَ بها ... وبين أيامِ بدرٍ أقربُ النسبِ

وقال علي بن الجهم [1] في مدح المعتصم :

اليك خليفة اللـــه استقلتْ ... قلائصُ مثل مجفلةِ النعامِ
وليتَ فلم تدع للدين ثأراً ... سيوفُك والمثقفةُ الدوامي
نصبتَ "المازيارَ" على سحوقٍ ... و "بابك" والنصارى في نظامِ
مناظرُ لا يزالُ الدِّينُ منها ... عزيزَ النصرِ ممنوعَ المرامِ
وقد كادتْ تزيغُ قلوبَ قومٍ ... فأبرأتَ القلوبَ من السقامِ
وعمّوريّةٌ ابتدرتْ إليها ... بوادرُ من عزيزٍ ذى انتقامِ
وجمعُ "الزّطِ" حين عموا وصمّوا ... عن الداعي إلى دارِ السَّلامِ [2]
أطلَّ عليهمُ يومٌ عبوس ... تعوّذ منه أيامُ الحمامِ
لسيفك دانتْ الدُّنيا وشُدَّت ... عرى الإسلامِ من بعد انفصامِ

وقال أبو العتاهية [3] في الزهد والحكمة من أرجوزته " ذات الأمثال " :

الحمد لله على تقديره ... وحسن ما صرف من أموره
الحمد لله بحسن صنعه ... شكرا على اعطائه ومنعه
يخير للعبد وان لم يشكره ... ويستر الجهل على من يظهره
خوف من يجهل من عقابه ... وأطمع العامل في ثوابه
يا خير من يدعي لدى الشدائد ... ومن له الشكر مع المحامد

* * * * *

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما اكثر القوت لمن يموت
ان كان لا يغنيك ما يكفيكا ... فكل ما في الارض لا يكفيكا

---

(١) ديوان علي ابن الجهم : ٧ (٢) الزط : طائفة من أهل الهند
(٢) ديوان أبي العتاهية : ٤٤٤ وما بعدها .

الفقـر فيما جاوز الكفافـــا ... من عرف الله رجا وخافـــا
ان القليل بالقليل يكثـــر ... ان الصفـاء بالقذى ليكـــدر
من لم يصل فارض اذا جفاكـا ... لا تقطعن للهـوى أخاكـــا
الله حسبي في جميع أمـــرى ... به غنائي واليـه فقـــرى

وقال أبو العتاهية(١) في التحذير من الدنيا وذكر الموت :

ما يدفع الموت أرصاد ولا حرس ... ما يغلب الموت لا جن ولا أنـــس
هلا أبادر هذا الموت في مهل ... هلا أبادره مادام بي نفـــس
يا خائف الموت لو أمسيت خائفه ... كانت دموعك طول الدهر تنبجـس
أما يهولك يوم لا دفاع لـــه ... اذ أنت في غمرات الموت منغمـس
أما تهولك كأس أنت شاربهـــا ... والعقل منك لكوب الموت ملتبـس
اياك اياك والدنيا ولذتهـــا ... فالموت فيها لخلق الله مفـــترس
ان الخلائق في الدنيا لو اجتهدوا ... أن يحبسوا عنك هذا الموت ما حبسـوا
ان المنية حوض أنت تكرهـــه ... وأنت عما قليل فيه تنغمـــس
مالي رأيت بني الدنيا قد افتتنوا ... كأنما هذه الدنيا لهم عـــرس

وقال أبو نواس(٢) في التضرع والدعاء :

يا رب ان عظمت ذنوبي كثـرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظـم
ان كان لا يرجوك الا محسـن ... فبمن يلوذ ، ويستجير المجـرم ؟

---

(١) الديوان : ١٨٨
(٢) الديوان : ٦١٨

أدعوك رب كما أمرت تضرعـــــا فاذا رددت يدى فمن ذا يرحـــم
مالي اليك وسيلة الا الرجـــا وجميل عفـوك ثم أني مســـلم

وقال أبو نواس[1] من قصيدة بعنوان "النفس والدنيا" :

لا تفرغ النفس من شغل بدنياهـــا رأيتها لم ينلها من تمناهـــا
انا لننفـــس في دنيا موليـــة ونحن قد نكتفي منها بأدناهـــا
حذرتك الكبر لا يعلقك ميســـمه فانه ملبس نازعتـــه اللـــه
يا بؤس جلد على عظم مخرقـــة فيه الخروق اذا كلمتـه تاهـــا
مـتن على نفســه راض بسيرتهـــا كذبت يا خادم الدنيا ومولاهـــا
اني لأمقـت نفسي عند نخوتهـــا فكيف آمن مقت الله ايّـــاها
أنت اللئيم الذى لم تعد همتـــه ايثار دنيا اذا نادته لبـــاها
يا راكب الذنب قد شابت مفارقـــه أما تخاف من الايام عقباهـــا ؟

وقال علي بن الجهم[2] لما حبسه المتوكل ونفاه الى خراسان ، وأمر عبدالله بن طاهر بصلبه :

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الا ثنين معموزا ولا مجهـــولا
نصبوا بحمد الله ملء عيونهـــم شرفا وملء صدورهم تبجيـــلا
ما عابـه أن بز عنـه لباســـه فالسيف أهل ما يرى مســـلولا

---

(١) ديوان أبي نواس : ٦١٣

(٢) تكملة ديوان ابن الجهم : ١٧١ ، ١٧٢

ان المصائب ما تعدّت دينه ... نعم وان صعبت عليه قليلا
والله ليس بغافل عن أمره ... وكفى بربك ناصرا ووكيلا
لن تسلبوه — وان سلبتم كل ما ... خولتموه — وسامة وقبولا
هل تملكون لدينه ويقينه ... وجنانه وبيانه تبديلا
لم تنقصوه وقد ملكتم ظلمه ... ما النقص الا أن يكون جهولا
كادت تكون مصيبة لو أنكم ... أوضحتم ذنبا عليه جليلا
ان كان سفّ الى الدنيئة أو رأى ... غير الجميل من الأمور جميلا

وقال أبو تمام[1] يمدح المأمون :

وتكفل الأيتام عن آبائهم ... حتى وددنا أننا أيتام
مستسلم لله سائس أمة ... لذوى تجهضمها له استسلام
يتجنب الآثام ثم يخافها ... فكأنما حسناته آثام
يا أيها الملك الهمام وعدله ... ملك عليه في القضاء همام
مازال حكم الله يشرق وجهه ... في الأرض مذ نيطت بك الأحكام
لما رأيت الدين يخفق قلبه ... والكفر فيه تفطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى ... أسرجن فكرك والبلاد ظلام
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه ... حسن اليقين وقادة الاقدام
ما كان للاشراك فوزة مشهد ... والله فيه وأنت والاسلام

---

(١) الديوان : ٣/ ١٥٣ — ١٥٧

خاتمة البحث

لقد كان العصر العباسي الأول من أزهى العصور الاسلامية على الاطلاق ، فقد بلغت الدولة الاسلامية في هذا العصر قمة المجد في مختلف مظاهرها وخلف لنا العباسيون ثروة فكرية هائلة .

وكان من أسباب هذا التطور انتقال الخلافة الى بغداد ، واختلاط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى ، ثم ما لقيه العلماء وجميع البارزين من تشجيع كبير من قبل الخلفاء وذوى السلطان .

وتطور الشعر العباسي في مختلف مظاهره ، واتجه الشعراء الى السهولة والوضوح وابتعدوا عن الغرابة في الالفاظ والركاكة في الأساليب ، واهتموا بتجويد المعاني واختراع النادر منها ، ولاءم الشاعر بين حياته المتحضرة وبين ماضيه القديم واتخذ من القديم أساسا ثم أضفى عليه ما يناسب عصره ، وطبع شعره بطابع الحضارة التي يعيشها .

ونظم الشعراء في الأغراض القديمة ، ولكن مع تطوير يلائم حياتهم الجديدة واستحدثوا أغراضا جديدة فرضتها عليهم الحياة العباسية . وبذلك وصل الشعر العربي في هذا العصر الى القمة في الابداع والجودة ، وجمع الشعراء بين جزالة القديم وسهولة الجديد ، بين خشونة البداوة ونعومة الحضارة ، واستطاعوا الملاءمة بين الماضي والحاضر ، وصوروا المجتمع بكل ما فيه من مظاهر وحوادث ونظم . وكان ذلك كله بأسلوب سهل واضح يبدو عليه ابداع الفنان ، وعبقرية الشاعر والهام الحياة المتحضرة .

وحظيت اتجاهات الشعر المختلفة في هذا العصر بنوع من دراسة الباحثين واهتمام الأدباء ، ولكن الاتجاه الاسلامي في الشعر العربي بوجه عام لم يلق شيئا من العناية والدراسة ، وبقي الأدب الاسلامي مبعثرا في صفحات الكتب ، وبقي الاتجاه الاسلامي خافيا على كثير من الناس ، حتى أن الدارس للشعر العباسي قد لا يتصور الا مجون أبي نواس وأمثاله .

ومفهوم الشعر الاسلامي هو كل شعر اتضحت فيه العاطفة الاسلامية الصادقة ووسمته المعاني القرآنية ، وظهر عليه تصور الكون والحياة والأشخاص من خلال الاسلام ومثله العليا .

وقد سجل الشعر العباسي في عصره الأول صفحة مشرقة من صفحات تاريخ الشعر الاسلامي ، وعبر عن عواطف الأمة الاسلامية أصدق تعبير ،كما صور معارك الاسلام ضد أعدائه بكل اتقان وابداع ، ودخل الشعر الاسلامي في خضم الصراع بين الحق والباطل ووقف الشعراء يدافعون عن مبادئ الدين ، ويؤيدون ذلك بالبراهين الساطعة ، ويردون على الزنادقة والمنحرفين وطلاب الدنيا .

ولم يسكت الشعراء عن المظاهر الاجتماعية التي انتشرت في عصرهم ، بل أعلنوا مواقفهم صريحة من هذه المظاهر ، وذلك من خلال الاسلام ومثله العليا ، فبينوا ضلال المنحرفين عن الطريق المستقيم ، ودعوا المنغمسين في ملذات الدنيا الى عبادة الله والاستعداد ليوم الجزاء والحساب .

وحظيت الأخلاق الاسلامية الفاضلة باهتمام الشعراء ، وراحوا يرددون تلك الفضائل والأخلاق الحميدة في مدائحهم ،ويشيدون بمن يتحلى بمثل هذه الأخلاق .

وباختصار فقد عاش العصر العباسي صراعا بين التدين والانحراف ، وصور شعراء الاسلام الاتجاه الاسلامي ، وعبروا عن عواطف الأمة الدينية كما عبروا بذلك عن عواطفهم الاسلامية الجياشة .

وتعددت أغراض الشعر الاسلامي ، فمنها ما سار فيه الشعراء على طريقة القدماء من مدح ورثاء وهجاء ، ومنها ما هو جديد نشأ في العصر العباسي كالزهد والمواعظ . وقد ابتهل الشعراء الى ربهم في الالهيات ، وأقروا بعظيم صنع الله في الكون الكبير ودعوا الى توحيده واخلاص العبادة له .

وردد الشعراء في مدائحهم ما اتصف به الخلفاء والوزراء والقواد من صفات اسلامية وأخلاق فاضلة . وأثنوا على شجاعتهم وتضحيتهم وحرصهم على رفع راية الاسلام ، وقد سجلوا بذلك أروع الصفحات المشرقة في البطولة والتضحية والأخلاق .

وتصدى الشعراء لأعداء الاسلام الذين أضلتهم البدع واتبعوا مذاهب دينية منحرفة فانكر الشعراء تلك المذاهب الهدامة ، ودعوا الى القضاء عليها ، وارشاد من اعتنقها . وسجل الشعراء في رثائهم صورا حية لشهداء المسلمين الأبطال ، صورة يملؤها الاعتزاز والفخر بهؤلاء الأبطال ، ويشوبها الحزن والأسى لفقد هؤلاء العظام من الرجال .

ودخل الشعراء معترك الحياة الاجتماعية ، وعبروا عن مظاهرها من خلال نظرة الاسلام للمثل والأخلاق ، وكانت قصائدهم تحث على الفضيلة من صدق وأمانة وعفة ومروءة ، وتحذر من كل رذيلة وتعيب على هؤلاء المنحرفين تنكبهم للطريق السوى . ووقف الشعراء في وجه طلاب الدنيا ، الذين لا يهمهم الا اللذة ، ولا يسيطر على عواطفهم الا حب المال وتلبية الشهوات ، فراحوا يحذرون كل مغرور بمظاهر الدنيا البراقة ، ويوقظون كل غافل عن الدار الآخرة ، ويوضحون أن الاعمار قصيرة وأن الموت

قريب ، فالحياة لا تستأهل هذا السعي الملح وراءها على حساب اهمال أمور الآخرة .

وبذلك أضاف الشعراء في أغراضهم الاسلامية رصيدا فكريا هائلا ، يضاف الى ما سجله الشعر العربي في اتجاهاته الأخرى من ثروة أدبية ضخمة . واحتل الاتجاه الاسلامي مكانا بارزا في صفحة الشعر العباسي ، وحظى باهتمام كبير من أعلام الشعراء وغيرهم ، ووقف هذا الاتجاه يصارع الانحراف والالحاد والمجون والانغماس في نعيم الدنيا .

وشارك أعلام الشعراء في التعبير عن المواطف الاسلامية كأبي تمام وأبي العتاهية وابن الجهم وغيرهم وحتى هؤلاء المجان كانت لهم فترات صحو يستيقظون فيها ، فتسمو أرواحهم الى خالقها ، وتسجل قصائدهم روائع في الزهد والمديح .

والمجون الذى انتشر في العصر العباسي بالغ الأدباء في تصويره ، وأعطوه من الاهتمام اكثر مما يستحق في الواقع ، حتى أن الدكتور طه حسين وصم العصر العباسي كله بأنه عصر شك ونفاق ومجون ، ثم جعل أبا نواس وأضرابه من المجان يمثلون العصر العباسي والحياة الشعرية فيه ، مع أن هؤلاء لا يمثلون سوى اتجاه منحرف نشأ لظروف مختلفة في العصر العباسي ، وهؤلاء لا يمثلون سوى طبقة من طبقات المجتمع ، ألا وهي الطبقة " الارستقراطية " التي سيطر عليها الترف ، ومالت الى شهوات الدنيا .

ومن الخطأ أن نجعل شاعرا واحدا يمثل عصرا بكامله ، أو نجعله يمثل الحياة الشعرية في عصره كما فعل ذلك طه حسين عندما جعل أبا نواس يمثل الحياة الشعرية في بغداد . وقد اتهم أحمد الجوارى أبا العتاهية بأنه كان يتحدى القرآن ، ويتطلع الى منزلته في نفوس المسلمين ، وهذا الاتهام يكذبه شعر الشاعر وينكره ما كان للقرآن الكريم من منزلة

بلاغيـــة عظيمة ، وما كان للقرآن الكريم من منزلة عظيمة في نفوس المسلمين لا يمكن أن يضعفها شعر شاعر أو نثر مهما كانت منزلته في البلاغـــة .

ومن العجب أن يعلل الجوارى لرأيه السابق بأن أبا العتاهية يورد كثيرا من معاني القرآن في شعره ، وهذا دليل على ايمان الشاعر العميق وتأثره بالقرآن ، وظهور هذا التأثـــر في شعره .

والشعر الاسلامي في هذا العصر سجل أروع الصفحات في تاريخ الشعر الاســـلامي وعبر بكل صدق وأمانة عن عواطف المسلمين وآمالهم وآلامهم وصور أخلاق المسلم المثاليـــة ورسم لنا صورة للصراع العنيف بين الحق والباطل ، ذلك الصراع الذى اشتد في العصـــر العباسي ، وصوره الطرفان بكل ما أوتي كل منهما من قوة البيان .

وأملي كبير بعد كتابة هذه الصفحات أن أكون قد سلطـــت الأضـــواء على اتجـــاه هام من اتجاهات الشعر العربي ، في عصر من أزهى العصور الاسلامية . كما أرجـــو أن يكون القارئ بعد قراءته لهذه الصفحات قد أخذ فكرة واضحة عن الاتجاه الاســـلامي الذى يمـــر به الأدباء مرور الكرام في دراساتهم الشعرية

وكنت في كل سطر من سطور هذا البحث أحاول إبراز الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي ، وذلك من خلال الوقائع والأحداث في هذا العصر ، ومن صميم ما قالـــه الشعراء تعبيرا عن الحياة التي يعيشونها .

* * * * *

الفهـــارس

١ــ فهـــرس الاعـــلام

٢ــ فهـــرس تراجم الشـــعراء

٣ــ فهـــرس الأماكن والبلـــدان

٤ــ فهـــرس المـــراجع

٥ــ فهـــرس الموضوعـــات

ملاحظات :

١) الفهارس مرتبـــة ترتيبـــا هجائيـــا .

٢) في فهرس الاعلام اعتمدت على الشهرة سواء كانت بالاسم أو باللقب أو بالكنيـــة .

٣) الرمز بالحرف " هـ " يعني أن العلم أو المكان موجودان في الهامش

فهـرس الاعـلام

ـ أ ـ

آدم عليه السـلام : ٤٧
الآمـدى (الحسن بن بشر) : ٥٣/هـ
أبان بن عبد الحميد اللاحقي : ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٧
ابراهيم بن أدهم :
ابراهيم (عليه السلام) : ٩٨
ابراهيم بن عبد الله : ٦٤/هـ
ابراهيم المازني : ٥٠/هـ
ابراهيم بن موسـى : ٨
ابراهيم الموصلـي : ١١
ابليـس : ٩٨
أحمـد أمـين : ٢ ، ٣
أحمـد بن حنبـل : ٦٢ ، ٦٥
أحمد الجوارى : ٤ ، ١٠/هـ ، ٧٦/هـ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩
أحمد بن أبي دواد : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .
أحمد شـوقي : ٤٧
أحمد عبد المجيد الغزالي : ٤٠/هـ
أحمد بن يوسف الكاتب : ٤٧/هـ
الأخطـل : ٦٠
أسامة بن منقـذ : ٩٤/هـ
اسحاق بن ابراهيم الموصلي : ١١
اسحاق بن حسان الخريمي : ٧٤
أشجع السـلمى : ٢٣ ، ٥٦ ، ٥٧

ابن الأشعث (عبد الرحمن) : ٦
الأمين (محمد بن هارون) : ٨ ، ١٢ ، ٥١ ، ٧٢
أنيس المقدسي : ٣ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٩

— ب —

بابك الخرمي : ٩ ، ٥٤ ، ١٢١
البارودى (محمود سامي) : ٤٧
بجير بن زهير بن أبي سلمي : ٣٠
البحترى (الوليد بن عبيد) : ٢٧
البديعي : ٥٣/هـ
بشار بن برد : ٣ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧١
بشر المريسى : ٦٥
أبو بكر ، عبد الله بن أبي قحافه (رضي الله عنه) : ٦٥ ، ٦٩ ، ٩٢ ، ٩٩
البوصيرى : ٤٧

— ت —

أبو تمام (حبيب بن أوس) : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨ .

— ث —

... ...

— ج —

جبريل (عليه السلام) : ٦٥
ابن الجراح : ٩٢/هـ
جرير : ٦٠
جعفر الصادق : ٦٤
الجهم بن صفوان : ٩٢
جورجي زيدان : ٨٥
جوستاف جرونبام : ٢

— ح —

أبو الحجاج الأعرابي : ٦٥
حسان بن ثابت : ٣٠، ٣٨، ٤٥
الحسن بن سهل : ٥٧
الحسن بن قحطبة : ٧
حسين الزاعي : ٩٣/هـ
الحسين بن الضحاك : ٢٦
حماد عجرد : ٢٤، ٢٦، ٥٠/هـ، ٦٠، ١٠٥، ١٠٦

— خ —

خالد بن يزيد : ٥٣، ٥٧
الخطيب التبريزى : ٥٣/هـ
ابن خلدون (عبد الرحمن) : ١٠٨، ١١١
ابن خلكان (احمد بن محمد) : ٢
الخليل بن أحمد : ٨٠
خليل مردم : ٤٢/هـ
الخنساء (تماضر بنت عمرو) : ٦٨

— د —

دعبل بن علي الخزاعي : ٣ ، ٢٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٩
أبو دلف العجلي : ٥٣ ، ٥٧
ديك الجن : ٢٦ ، ٤٨

— ذ —

ذو النون المصرى (ابراهيم بن ثوبان) : ٤٢

— ر —

رباح (شيخ) : ٢٨
الرشيد (هارون بن محمد) : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٤/هـ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٨ ، ١١١ .
ابن الرومي (علي بن العباس) : ٩٧

— ز —

ابن الزبير (عبدالله) : ٦
زكي المحاسني : ٤٠/هـ
ابن الزيات : ٦٣

— س —

سامي الدهان : ٥٢
سفيان الثورى : ١٢ ، ٧٨
سفيان بن عيينه : ١٢ ، ٧٨
سكن (جارية الوراق) : ١٠
سلم الخاسر : ١٠ ، ٢١ ، ٥٧ ، ٨٥

أبو سلمة الخلال : ٧ ، ٨
ابن السماك : ١٢
السمعاني (عبد الكريم بن محمد) : ٩٢/هـ

— ش —

الشافعي (محمد بن ادريس) : ٩٣
شاكر هادى شكر : ٦٤/هـ
شكرى فيصل : ٣٩/هـ ، ٨٤
شوقي ضيف : ٣ ، ١٨ ، ٧٦/هـ ، ٨٣ ، ٨٥ .
أبو الشيص الخزاعي : ٣

— ص —

صخر بن عمرو الشريد : ٦٨
الصولى (محمد بن يحيى) : ٤٧/هـ ، ٥٣/هـ .

— ض —

... ...

— ط —

طه الحاجرى : ٥٠/هـ
طه حسين : ٣ ، ٤ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٨ .
الطبرى (محمد بن جرير) : ٢ ، ١٠/هـ ، ١٢/هـ ، ٥٧/هـ ، ٧٤/هـ .

— ظ —

... ...

— ع —

أبو العباس السفاح : ٧

عباس محمود العقاد : ٤٠/هـ ، ٥٠٠/هـ .

عباس مصطفى : ٤٠/هـ

العباس (عبد الرحيم) : ٢

عبد الصاحب الدجيلي : ٤٦/هـ

عبد الرؤوف المناوى : ٩٣/هـ .

عبد الرحمن الباشا : ٤٢/هـ ، ٦٣/هـ ، ٩٩/هـ .

عبد الرحمن بن درهم : ٩٣/هـ .

عبد الرحمن صدقي : ٤٠/هـ .

عبد الستار أحمد فراج : ٧٢/هـ .

عبد السلام الخارجي : ٨

عبد الكريم الأشتر : ٤٦/هـ

عبد الله بن رواحه : ٣٠

عبد الله بن طاهر : ٧٣ ، ١٢٣

عبد الله بن علي (عم المنصور) : ٨

عبد الله بن المبارك : ١٢ ، ٣٩ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٠٦ .

العتابي (كلثوم بن عمرو) : ١٦

أبو العتاهية (اسماعيل بن القاسم) : ٣ ، ٤ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

عتبه (جارية المهدى) : ٨٦ .

عثمان بن خريم الغطفاني : ٧٤/هـ

عثمان بن عفان (رضي الله عنه) : ٦٩ ، ٩٢
علي بن جبلـــه : ١٠٥
علي بن الجهم : ٣ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ .
علي احمد الزبيـــدى : ٣
علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : ٦ ، ٤٧ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٩٢ .
علي بن عبد الله بن عباس : ٦
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ٦٥ ، ٦٩ ، ٩٢
عمر بن عبد العزيز : ٧ ، ٦٨
عمر فـــروخ : ٤٠/هـ ، ٥٠/هـ .
عمرو بن عبيـــد : ١٢
أبو عمرو بن العـــلاء : ١٨
عنـــان (جارية الناطفي : ١٠

— ف —

فؤاد تـــرزى : ٥٢/هـ .
أبو الفرج الأصبهاني : ٢ ، ٩٨
الفـــرزدق : ٦٠
الفضل بن الربيع : ١٠
الفضل بن ســـهل : ٥٧
الفضل بن يحيى : ٥٧
الفضيل بن عياض : ١٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٩٢

— ق —

القاسم بن يوسف : ٤٧
ابن قتيبـــه (محمد) : ٢

ـ ك ـ

كسرى : ٧٣

الكميت بن زيد الأسدى : ٦٨

ـ ل ـ

لويس شيخو : ٣٩/هـ

ـ م ـ

المأمون (عبد الله بن هارون) : ٨، ٩، ١٥، ١٦، ٢٥، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٦١، ٦٥، ٧٦، ٨٤، ٨٥، ١٠٩، ١١١، ١٢٤.

مازيار بن قارن : ٩، ٥٤، ١٢١

مالك بن دينار : ٧٨

متمم بن نويره : ٦٨

المتنبي (أحمد بن الحسين) : ١٧، ٢٢، ٢٤، ٩٧

المتوكل (جعفر بن عمر) : ٤٩، ٥٦، ٩٩، ١٢٣

محمد بن احمد بن أبي دواد : ٦٤/هـ.

محمد جميل سلطان : ٥٢/هـ.

محمد بن حميد الطوسى : ١٠، ٢٥، ٧١، ٧٣، ٩٧، ١٠٠

محمد أبو زهره : ٩٣/هـ.

محمد بن الطاهر عاشور : ٥٠/هـ.

محمد بن عبد الملك الزيات : ٥٧

محمد عبد المنعم خفاجي : ٣، ١٨، ٢٨، ٧٦/هـ، ٨٥

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) : ١، ٨، ٣٠، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٨، ٧٢، ٩٥، ١١٧، ١١٨.

محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) : ٦

محمد بن علي بن عباس : ٦

محمد بن أبي العتاهية : ٨٠
محمد بن كناسه : ٣٩، ٨٠، ٨٨، ٩٣.
محمد مصطفى هداره : ٢، ٣، ٢٨، ٧٨، ٨٣، ٨٨،
محمد عبده عزام : ٥٣/هـ.
محمد بن يوسف الثغرى : ٢٢، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ١٠٠.
محمد يوسف نجم : ٤٦/هـ.
محمود الوراق : ١٠، ٣٩، ٤٢، ٨٠، ٨٨، ٩١، ١٠٦
المرزبانى (محمد بن عمران) : ٢
مروان بن أبي حفصه : ١٠، ٢٨، ٥٦، ٥٧
مروان بن محمد : ٧
المسعودى : ٢، ٧/هـ.
أبو مسلم الخراساني : ٧، ٨
مسلم بن قتيبه الباهلي : ٥١
مسلم بن الوليد (صريع الغواني) : ٢٥، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٥٨
مصطفى عبد الرزاق : ٩٣/هـ.
مطيع بن اياس : ١٢، ٢٦، ٨٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨
معاوية بن أبي سفيان : ٧
معاوية بن عمرو الشريد : ٦٨
ابن المعتز (عبد الله بن محمد) : ٢، ١٩، ١٨/هـ، ٢٧، ٥٢/هـ، ٨٥
المعتصم (محمد بن هارون) : ٩، ٢٢، ٢٣، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٩٧،
١٠١، ١١٩، ١٢٠، ١٢١
معمر بن المثنى (أبو عبيده) : ١٠٩
معن بن زائده : ١٠، ٥٦/هـ، ٥٧
منصور بن زياد : ٧١
المنصور (عبد الله بن محمد ، أبو جعفر) : ٧، ٨، ١٠
منصور بن عمار : ٨٥، ٩٠
منصور النمرى : ١٦، ٤٨، ٦٨

المهـــدى : ٨، ١٠، ١٥، ٤٩، ٥١، ٥٥، ٥٦/هـ، ٤٨
ميســـــره : ٧

— ن —

النابغة الذبياني : ٢١
الناطفي : ١٠
نجيب البهبيتي : ٣، ٧٦/هـ، ٩٤
نجيب الكيلانـــي : ٣٠، ٣٣
ابن النديم (محمد بن أبي يعقوب) : ٨٦
نصـــر بن ســـيار : ٧
النظـــام (ابراهيم بن سيار) : ١١٦
النعمان بن المنـــذر : ٢١
أبو نواس (الحسن بن هاني°) : ٤، ١٢، ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٤٠، ٤١، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٨، ٩٠، ٩٧، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨

— هـ —

الهادى : ٨٤
هارون بن سعد العجلى : ٦٤
أبو الهذيل العلاف : ٩٤/هـ٠

— و —

والبـــة بن الحبـــاب : ١٢، ٢٦، ٨٤، ١٠٥، ١٠٦

— ى —

ياقوت الحمـــوى : ٨٥/هـ .

يحيى بن اكثـــم : ١٠٩

يزيد بن مزيـــد : ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٩٧ .

يزيد بن المهلـــب : ٦

يزيد بن هبـــيره : ٥١

يوسف البـــرم : ٥٢

فهرس تراجم الشعراء

اسحاق بن حسان الخريمي	٧٤
بشار بن برد	٥٠
أبو تمام (حبيب بن أوس)	٥٣
الحسين بن الضحاك	٧٢
دعبل بن علي الخزاعي	٤٦
ذو النون المصري	٤٢
السيد الحميري (اسماعيل بن محمد)	٦٤
الشافعي (محمد بن ادريس)	٩٣
صالح بن عبد القدوس	٩٤
عبد الله بن المبارك	٩٢
أبو العتاهية (اسماعيل بن القاسم)	٣٩
علي بن الجهم	٤٢
القاسم بن يوسف العجلي	٤٧
محمد بن كناسه	٩٣
محمود حسن الوراق	٤٢
مروان بن أبي حفصه	٥٦
مسلم بن الوليد	٥٢
أبو نواس (الحسن بن هانيء)	٤٠
هارون بن سعد العجلي	٦٤

فهرس الأماكن والبلدان

آسيا ١٠

افريقية ١٠

أنقره ١٠

الأهواز ٤٠/هـ

ايران ٩، ١٣

بدر ٥٥، ٥٨، ٩٠، ١٢٠

البصره ١٥، ١٦، ٤٠/هـ، ٥٠/هـ، ٧٨

بغداد ٧، ٩، ١١، ١٢، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٢/هـ ٤٦/هـ، ٥٣/هـ، ٥٦/هـ، ٦٤/هـ، ٧٤، ٧٨، ١٠٥، ١٠٦، ١٢٥، ١٢٨،

بلاد الروم ١٥

بلاد الزنج ١٠

بلاد ما وراء النهر ١٢

بيت الله الحرام ٤١

بيروت ٤٦/هـ، ٥٢/هـ، ٧٢/هـ

جاسم ٥٣/هـ

جرجان ٥٢/هـ

الجزيرة العربية ٨، ١٢، ٣٦

الجيزه ٤٢/هـ

الحجاز ١٠

الحرمين الشريفين ٩٢

الحطيم ٩٨

حلب ٤٢/هـ

الحميمه ٦، ٧

خراسان ٧، ٨، ١٣، ٥٢، ٤٢/هـ، ١٢٣/هـ

خوزستان ٤٠/هـ.

دجلـــه ٧

دمشـــق ٩ ، ٤٠/هـ ، ٤٢/هـ .

الرقـــيم ٩٨

الرقـــه ٨٥

الريـــاض ١ ، ٣٤

زمـــزم ٩٨

ســـامراء ٧

الســـند ١٢

ســـوريا ٥٣/هـ .

الشـــام ٦ ، ٩ ، ١٣

الصعيـــد ٧

الصـــين ١٣

طبرســـتان ٩

العـــراق ٦، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٤٠/هـ ، ٤٦/هـ

عمـــان ٦٤/هـ .

عمـــورية ٩ ، ٢٢ ، ٥٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٩

عـين التمـر ٣٩/هـ .

غـــزه ٩٣/هـ .

فـارس ٩٤/هـ .

الفـــرات ٧

القاهـــرة ٩٣/هـ .

الكـــرخ ١٢

الكهـــف ٩٨

الكوفـــه ٧ ، ١٥ ، ٣٩/هـ ، ٤٦/هـ ، ٤٧/هـ ، ٧٨ ، ٩٣/هـ .

المحيط الأطلسي ١٣

المـدائن ٩

المدينة المنـــوره ٤٦
مصـــــر ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ٤٠/هـ ، ٤١/هـ ،
٤٢/هـ ، ٥٢/هـ .
مكـــة المكرمـــة ٥٨ ، ٩٢
الموصـــــل ٧١
النوبـــــه ٤٢/هـ .
واســـــط ٦٤/هـ .
هرقلـــــه ٢٣
الهنـــــد ١٠ ، ١٣ ، ١٢١/هـ .
اليمامـــــه ٥٦/هـ .

فهرس المراجع

١ــ الآداب العربية في العصر العباسي الأول / محمد عبد المنعم خفاجي / دار الطباعة المحمدية / القاهرة .

٢ــ الاتجاهات الأدبية في العصر العباسي / السيد أحمد خليل / مطابع بيبلوس / لبنان .

٣ــ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى / محمد مصطفى هداره دار المعارف القاهرة ١٩٧٠م

٤ــ أدباء العرب في الأعصر العباسية / بطرس البستاني / مكتبة صادر بيروت ١٩٥١م .

٥ــ أشعار الخليع / الحسين بن الضحاك / جمع وتحقيق عبد الستار فراج / دار الثقافة بيروت .

٦ــ الاعلام / خير الدين الزركلى / الطبعة الثالثة

٧ــ الاغاني / أبو الفرج الأصفهاني / دار الكتب المصرية .

٨ــ أمراء الشعر العربي في العصر العباسي / أنيس المقدسى / دار العلم للملايين / بيروت الطبعة التاسعة ١٩٧١م .

٩ــ الأوراق (قسم أخبار الشعراء) / أبو بكر الصولى / مطبعة الصاوى / الطبعة الأولى .

١٠ــ بشار بن برد / طه الحاجرى / دار المعارف بمصر ١٩٥٤م

١١ــ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي / حسن ابراهيم حسن / مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤م الطبعة السابعة .

١٢ــ تاريخ الأمم والملوك / محمد بن جرير الطبرى / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم / دار المعارف بمصر .

١٣ــ تاريخ بغداد / الخطيب البغدادى / مكتبة الخانجى ١٩٣١م القاهره .

١٤ــ تاريخ الدولة العربية / فلهوزن / ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده . طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨م القاهرة .

١٥- تاريخ الشعر السياسي / أحمد الشايب / مكتبة النهضة المصرية/ الطبعة الثانية ١٩٥٣م القاهره .

١٦- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى / نجيب البهبيتي دار الفكر ١٩٧٠م القاهره .

١٧- حديث الاربعاء / طه حسين / دار المعارف القاهره

١٨- حضارة الاسلام في دار السلام/ جميل نخله مدور / القاهره ١٩٣٢م

١٩- دراسات في الأدب الاسلامي / محمد خلف الله أحمد / لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧م القاهره .

٢٠- دراسات في الشعر العربي / عطا بكرى/ مطبعة الارشاد ببغداد / الطبعة الأولى ١٩٦٧م .

٢١- ديوان أبي العتاهيه (اسماعيل بن القاسم) / تحقيق شكرى فيصل / مطبعة جامعة دمشق .

٢٢- ديوان السيد الحميرى (اسماعيل بن محمد) / تحقيق شاكر هادى شكر دار مكتبة الحياة بيروت .

٢٣- ديوان بشار بن برد / تحقيق محمد بن الطاهر عاشور . وقف على طبعه محمد رفعت فتح ، ومحمد شوقي . طبع لجنة التأليف والترجمة .

٢٤- ديوان أبي تمام (حبيب بن أوس) / تحقيق محمد عبده عزام وشرح الخطيب التبريزى . طبع دار المعارف ١٩٦٥م .

٢٥- ديوان أبي نواس (الحسن بن هانيء) / تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي .

٢٦- ديوان العباس بن الأحنف / دار صادر بيروت .

٢٧- ديوان علي بن الجهم/ تحقيق خليل مردم بك طبع المجمع العلمي العربي بدمشق .

٢٨- ديوان محمد بن ادريس الشافعي / تحقيق زهدى يكن / دار الثقافة بيروت.

٢٩- ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) / تحقيق وتعليق سامي الدهان/ دار المعارف بمصر .

٣٠- الرثاء / شوقي ضيف / دار المعارف بمصر الطبعة الثانية.
٣١- رسالة الغفران / أبو العلاء المعرى / تحقيق وشرح بنت الشاطيء / دار المعارف بمصر .
٣٢- زهديات أبي نواس / تحقيق علي الزبيدى مطبعة كوستاتسوماس القاهره ١٩٥٩م .
٣٣- شعر دعبل الخزاعي / صنعة عبدالكريم الأشتر . طبع المجمع العلمي العربي بدمشق .
٣٤- الشعر والشعراء / محمد بن قتيبه / تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر .
٣٥- شعراء عباسيون / تحقيق جرونبام جوستاف . دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٥٩م .
٣٦- الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى / أحمد عبدالستار الجوارى . دار الكشاف ١٩٥٦م بغداد .
٣٧- ضحى الاسلام / أحمد أمين / مطابع دار الكتاب العربي بيروت .
٣٨- طبقات الشعراء / عبدالله بن المعتز / تحقيق عبدالستار فراج . دار المعارف بمصر .
٣٩- العصر العباسي الأول / شوقي ضيف / دار المعارف بمصر .
٤٠- العصر العباسي الأول / عبدالعزيز الدورى / نشر دار المعلمين العالية بغداد ١٩٤٥م .
٤١- عصر المأمون / أحمد فريد رفاعي / دار الكتب المصرية ١٩٢٧م
٤٢- العقد الفريد / ابن عبد ربه / شرحه وضبطه أحمد أمين ، أحمد الزين ابراهيم الابيارى . طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٠م القاهره .
٤٣- علي بن الجهم حياته وشعره / عبدالرحمن الباشا / دار المعارف
٤٤- العمده / الحسن بن رشيق القيرواني / مكتبة الخانجى القاهره ١٩٠٧م

٤٥— عيون الأخبار / عبد الله الدينوري / طبع المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر . القاهره

٤٦— الفخر والحماسه / حنا الفاخوري / دار المعارف ١٩٦٨م

٤٧— الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف / دار المعارف الطبعة السادسة .

٤٨— الفهرست / ابن النديم / المطبعة الرحمانية بمصر .

٤٩— فوات الوفيات / محمد بن شاكر الكتبي / تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر .

٥٠— في الأدب العباسي / محمد مهدي البصير / مطبعة السعدي ببغداد الطبعة الثانية ١٩٥٥م .

٥١— كيف تكتب بحثا أو رساله / أحمد شلبي / مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨م الطبعة السادسة .

٥٢— المديح / سامي الدهان / دار المعارف ١٩٦٨م

٥٣— مروج الذهب / علي بن الحسين المسعودي / بولاق القاهره ١٢٨٣ هـ

٥٤— معاهد التنصيص / عبد الرحيم العباسي / مطبعة السعادة بمصر .

٥٥— معجم الشعراء / محمد بن عمران المرزباني / تهذيب سالم الكرفكري مكتبة المقدسي ١٣٥٤هـ القاهره .

٥٦— من حديث الشعر والنثر / طه حسين / دار المعارف الطبعة التاسعة .

٥٧— الموشح / محمد بن عمران المرزباني / تحقيق علي محمد البجاوي دار النهضة ١٩٥٦م .

٥٨— النجوم الزاهره / يوسف بن تغري بردي / طبع دار الكتب المصرية .

٥٩— وفيات الاعيان / أحمد بن خلكان / علق عليه محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية .

٦٠— الورقه / محمد بن داود الجراح / تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج / طبع دار المعارف .

فهـرس الموضوعـات

الموضـوع	الصفحـة
مقدمـة البحـث	١ — ٥
الباب الأول :	٥ — ٣٦
ـ الحياة في العصر العباسي الأول	٥ — ١٧
ـ ازدهار الشعر في العصر العباسي	١٧ — ٣٠
ـ مفهوم الشعر الاسلامي	٣٠ — ٣٣
ـ عـدم دراسة الشعر الاسلامي	٣٣ — ٣٦
الباب الثاني : أغراض الشعر الاسلامـي	٣٦ — ١٠٢
ـ تمهيـــد	٣٦ — ٣٨
ـ الالهيـــات	٣٨ — ٤٤
ـ المديـــح	٤٤ — ٦٠
ـ الهجاء والدفاع عن الاســلام	٦٠ — ٦٧
ـ الرثـــاء	٦٦ — ٧٦
ـ الزهـد والمواعـظ	٧٦ — ٩٦
ـ أبرز خصائص الشعر الاسلامي في هذا العصر	٩٦ — ١٠٢
الباب الثالـث :	١٠٢— ١٥٠
١) آراء وردود	١٠٢— ١١٨
ـ اثبات الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي	١٠٣— ١٠٦
ـ تمثيل أبي نواس لعصره	١٠٦— ١١٦
ـ زهـد أبي العتاهيـة	١١٦— ١١٨
٢) نماذج من الشعر الاسلامي في هذا العصر	١١٩— ١٢٥
خاتمـة البحـث	١٢٥— ١٣٠
الفهـارس	١٣٠— ١٥٠